حسين شوقي

أبي شوقي

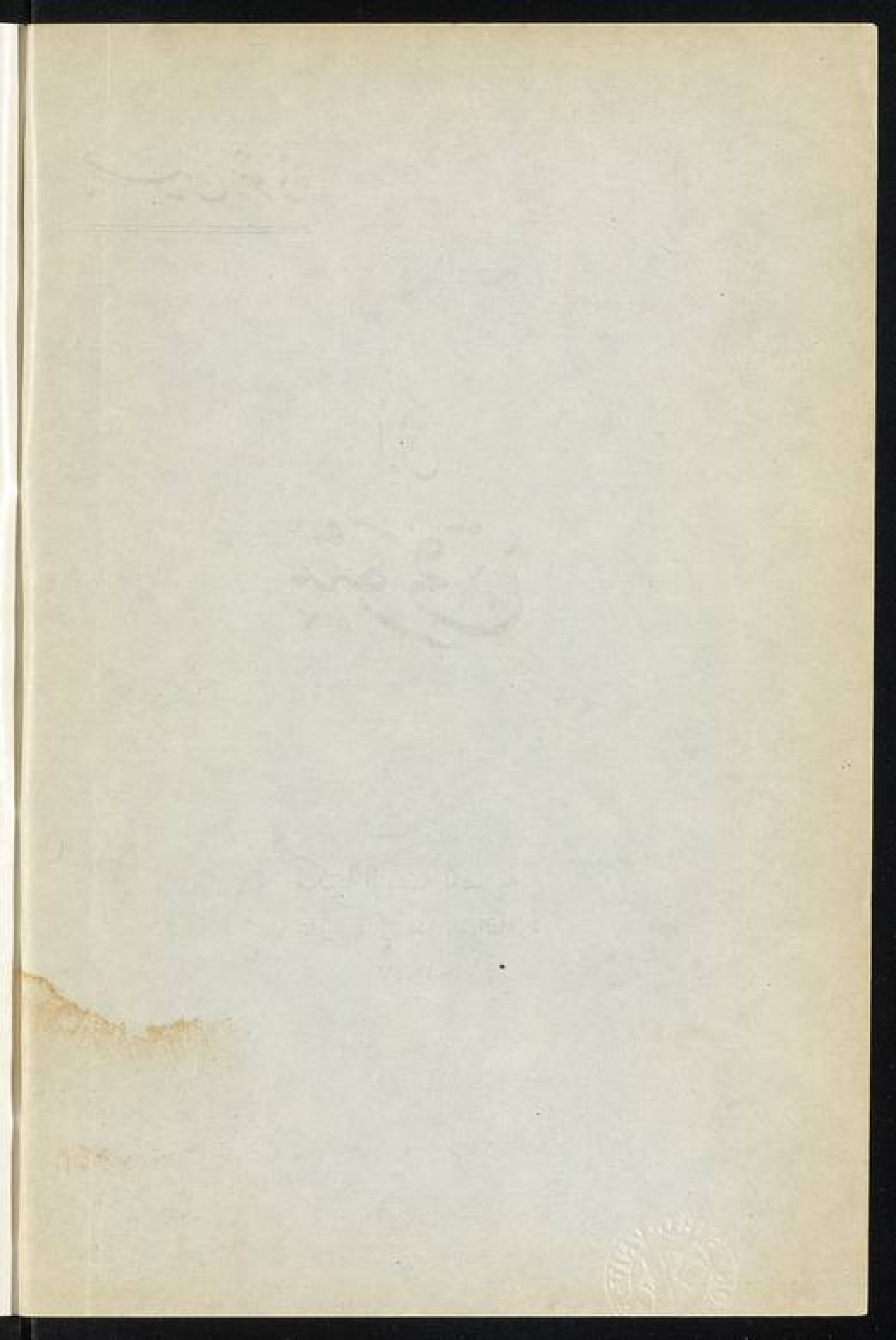
الناشر :
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا — القاهرة

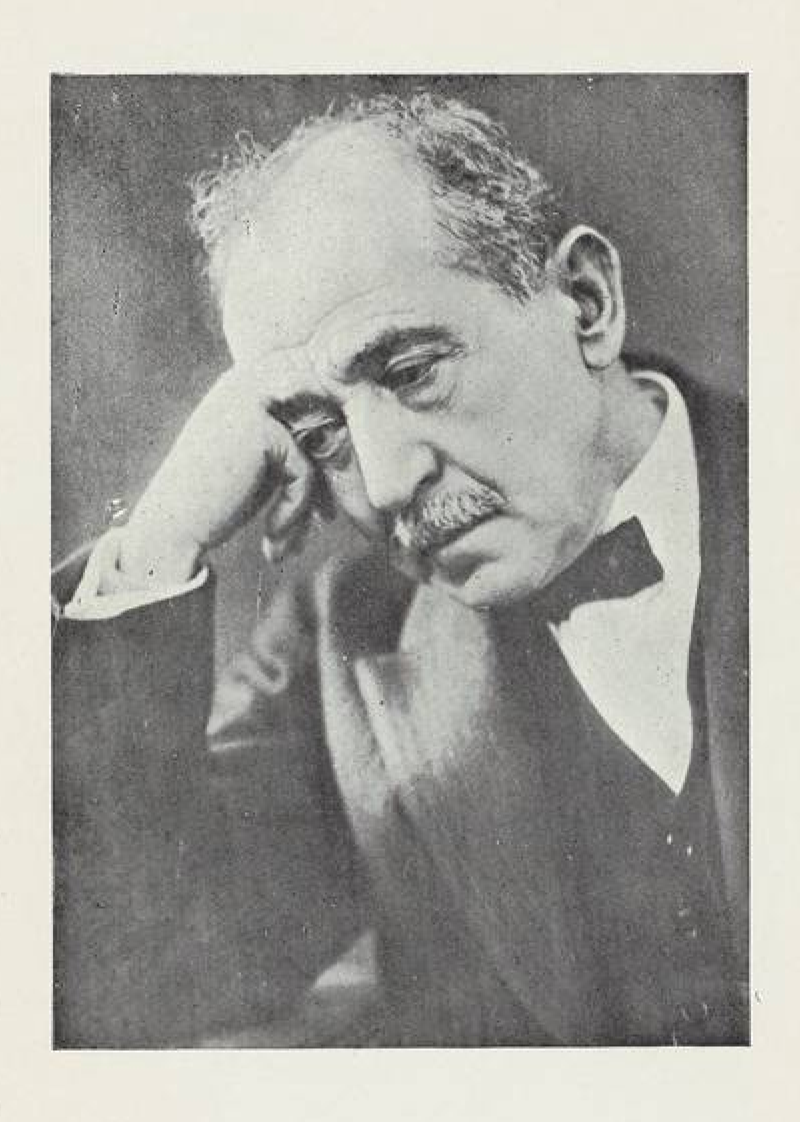
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٤٧

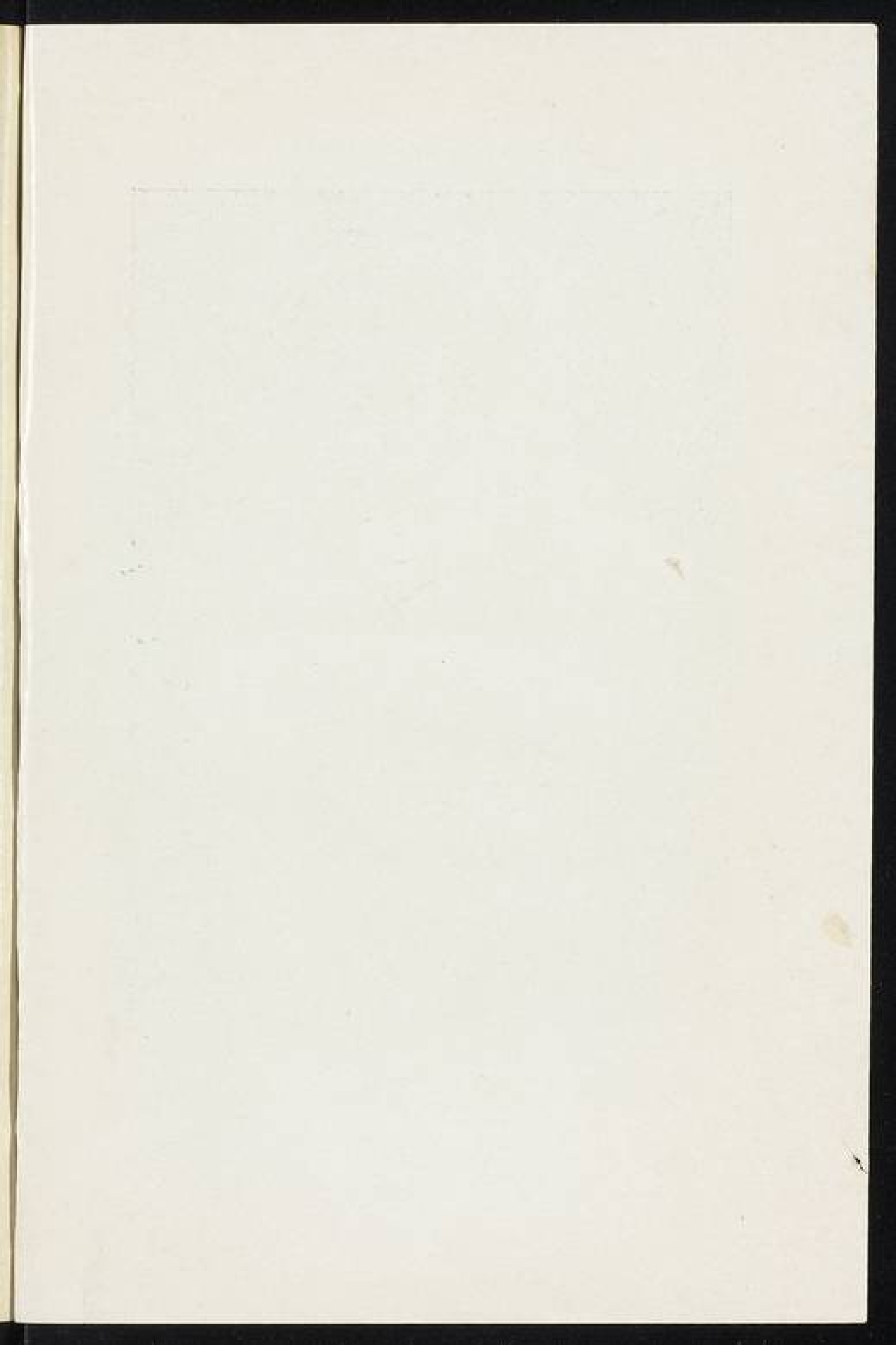
حسين شوقي

أبي شوقي

الناشر :
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا — القاهرة
١٩٤٧







مقدمة

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير خليل مطران بك

كان شوقى ، وقد أحب بنيه كما أحبهم ، جديراً بأن يبروه كما بروه حياً وميتاً .

أنهم ما زالوا إلى اليوم يتعقبون كل أثر من آثاره دقيقاً كان أو جليلا ، قريباً أو بعيداً فيوالون طبع دواوينه ومؤلفاته النثرية ولا يغفلون طرفة من طرف أدبه حتى فى أيام صباه الأولى .

ومن ألطف آيات هذا البر هذا الكتاب النفيس الذى صور فيه نجله حسين معاهد نشأته فى ظل منجبه العظيم وما لقيه من حنو ورحمة وعناية وما ربى فيه من دلال وعطف ورعاية منذ تركت أسرته البيت القديم بخط الحنفى وانتقلت إلى الدار التى اشتهرت بكرمة ابن هانىء فى المطرية ثم إلى الصرح المشيد فى حديقته الواسعة على النيل بالجيزة .

ماذا شهدت تلك المنازل من صنوف الحفلات و المظاهر الرائعة للوجاهة الحقة ومن أختلاف الملوك والأمراء وأ كابر

أهل العلم والأدب والفضل عربا وفرنجة إلى رحابها وماذا كان يجرى فى حجراتها كلما خلا أهلها بأنفسهم من لعب أطفال هم الآن على المستشار لسفارة مصر بلندن وحسين مدير مكتب المدير العام لجامعة فؤاد الأول والسيدة أمينة حرم حامد العلايلى بك وكيل مجلس النواب .

وماذا كانت هيمنة أشرف ربات الحجال وأكرم المحصنات المحسنات اللواتى ازدهى بهن وسام الكمال تلك الزوجة الصالحة والأم الرءوم ، ماذا كانت هيمنتها على أولئك الذين نشأتهم تنشئة الفضيلة والكرامة للأسرة والوطن .

أما هذا كله فتقرأ له نوادر ولطائف وغررا وطرائف فى القصص الصغيرة التى انتظمها هذا الكتاب وما أشهاها إلى النفس وما أبعد مراميها فى بساطتها وما أساس اللغة التى كتبت بها وما أدلها بجملتها على أمرين جليلين : إن « شوقى » كان خليقاً بالنعمة التى عاش فيها من حيث هو رب بيت ومن حيث هو وجيه قوم وانه جمع إلى عبقرية العقل عبقرية القلب فكان كبيراً فى أصغر دعاباته كما كان كبيراً فى أسمى مبتدعاته .

أبى « شوقى »

إنى سأحاول أن أنظر ورائى إلى الماضى البعيد خلال ضباب الزمن الكثيف ، وذلك قبل أن تتعذر نهائيا هذه الرؤية . .

كما سأحاول أن أقص أولا ذكرياتى عن أبى فى عهد طفولتى، ولو أن المحاولة شاقة ، لأن هذه الذكريات تزول شيئاً فشيئاً . .

فى ذلك العهد الذى يحق أن يقال عنه البعيد ؛ إذ يرجع تاريخه إلى أوائل عام ١٩١٤ ، أى إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، كنا نقطن المطرية ، إحدى ضواحى القاهرة المتطرفة ، كانت لنا هناك دار واسعة تحيط بها من كل جانب حديقة فسيحة ، وقد أطلق عليها أبى اسم « كرمة بن هانىء» . . . العباسى ، أى أبى نواس . . لأن أبى كان معجباً بهذا الشاعر الذى لم ينل حظه من الدراسة العميقة مع الأسف الشديد ، كما أن الأساطير جعلت منه شاعراً ماجناً . .

ولقد اختار أبى ضاحية المطرية هـذه ، على الرغم من

بعدها ، ليكون على مقربة من « قصر القبة » حيث كان يقضى سمو المغفور له الخديوى عباس حلمى معظم أوقات فراغه .. لأنه كان شديد التعلق بأبى يرسل فى طلبه فى كل وقت ..

كانت كرمة ابن هانىء هذه تضم منزلا قديما جدد فيه أبى كثيراً ، ثم شيد فى فنائه ملحقا ، ولو لم نكن فى حاجة إليه ، لأن المنزل القديم كان يكفينا كل الكفاية ، إذلم تكن أسرتنا إذ ذاك كثيرة العدد، فنحن خمسة : أبى وأمى وأخى على وأنا ، ثم المربية التركية .. أما أختى أمينة . وكانت متزوجة فى ذلك الوقت على الرغم من حداثة سنها (تزوجت قبل الخامسة عشرة !) ، فلم تكن تقطن معنا ، بل اقتنى لها أبى منزلا بجوار منزلنا ، بعدما أزال السور الذى كان حاجزاً بينها و بيننا ..

قلت إننا لم نكن فى حاجة إلى الملحق . وإذا كان أبى شيّده فذلك ليضع فيه ما كان يشتريه من أثاث وتحف من وقت لآخر فى المزادات العامة بدون أن تكون هناك حاجة إلى أكثره .. إذ كانت هذه هواية أبى فى ذلك الوقت .. من أجل هذا كان عندنا ثلاث غرف للطعام .. ثم خمسة صالونات ، تعرف وتميز بألوانها . فإذا أقبل ضيوف

لا يعرف أحدهم الآخر جلس كل منهم فى صالون ، وكان الخادم عندما يعلنهم لأبى يقول إن م. بك ينتظر فى الحجرة الخضراء ، وس. باشا ينتظر فى الحجرة الحمراء ، و ج. أفندى ينتظر فى الحجرة البيضاء .. الخ !

وهذه الحجر كانت تصير أصلح لو أصبحت تابعة لفندق ، لأنها كانت تؤدى كلها إلى دهليز واحد .. وكانت بسبب هذا الوضع العجيب ميدان لعبنا المفضل ، إذ كنا نلعب فيها لعبة الاستخفاء ، ولو أننا كنا لا نقصدها إلا فى وضح النهار ، لأن إحداها ـ وهى الحجرة الحمراء ـ كانت على حد رواية الخدم ، مسكونة .. يزعم هؤلاء أنهم كانوا يسمعون فى أثناء الليل أصواتا غريبة تنبعث منها .. أصواتا غير آدمية ! حتى فى الصباح كنا نتجنب الحجرة الحمراء .. مع أنى أعتقد أن هؤلاء الخدم قد اختلقوا تلك الرواية كى يقصونا عنها .. لأننا كنا نعبث بنظام الحجر التى نلعب فيها ، فنسبب لهم التعب الكثير فى تنظيفها وإعادة ترتيبها أما رفقائى إذ ذاك فى اللعب فكانوا بعض أبناء الجيران تضاف إليهم صبية زنجية صغيرة كانت خادمة خاصة لى أنا ..

وكانت هذه الصبية مستضعفة « هفيّة » جماعتنا .. كم ذاقت
المسكينة المرّ على أيدينا ! كنا على سبيل التعذيب، نضطرها أن
تدخل بمفردها فى الحجرة الحمراء ، فإذا فعلت أغلقنا وراءها
الباب بالمفتاح ، ولا نخرجها من هناك إلا مغمى عليها من
شدة الرعب والفزع .. وكانت إذا أفاقت سألناها عما
شاهدت فى الحجرة الحمراء ، فكانت تقسم عندئذ بأولياء الله
جميعاً ، على أن الشياطين كانوا يتناوبون قرصها ! وكان مما
يزيد فى نفورنا من تلك الحجرة أن الضوء كان فيها قليلا ،
وذلك بسبب طراز أثاثها وزينتها .. على الطراز العربى
القديم .. أما الحجر الأخرى فكانت نيرة ، كما كانت على
الطرازين الفرنسيين الرقيقين : لويس الخامس عشر ولويس
السادس عشر .. وكانت أحب حجرة إلىّ هى الحجرة
الخضراء ، لأن صورة كانت معلقة بها تمثل هيلين الإغريقية
الحسناء .. فكنت أقف طويلا وأنا مأخوذ بجمالها الرائع ،
وقد رآنى أبى ذات مرة وأنا على هذه الحال فقص على
قصتها ، وكيف أنها كانت ، على حدّ زعم الأساطير ، سبباً
فى حروب طروادة الطويلة الدامية ، فكنت أتحمس لدى

سماعي ذلك ، وأتمنى لو كنت أعيش في ذلك العصر لأسل بدوري حسامي في سبيل استرداد هيلين حريتها ولو بذلت حياتي في سبيل ذلك !

وكان هناك أيضاً خلاف الملحق المذكور ، سلاملك يعتبر ڤيلا لكبره ، حتى إننا لما بعنا كرمة بن هانئ هذه ، بعد عودتنا من المنفى بقليل ، فصل المالك الجديد السلاملك عن الباقي وباعه كدار صغيرة مستقلة . كما كان تحت هذا السلاملك مكان للعربات ، إذ كنا نملك عربتين ، احداهما «حنطور» والأخرى «فيتون»، ثم حظيرة (اصطبل) للخيل يضم حصانين، ثم هيأ أبي بجانبهما «جراجاً» لسيارة، إذ كان من الأوائل الذين اقتنوا السيارات في مصر ، مع أنه كان على الرغم من تعلقه بالسيارات طوال حياته ، يخشى السرعة فيحذر السائق على الدوام من الإسراع ، كما كان يستحلف أخي «علي» حينما اقتنى سيارة يقودها بنفسه، ألا يسرع . .

كانت «الكرمة» إذن مرتعاً خصباً لطفل مثلي ، وبخاصة أن الحديقة ملئت بشتى الحيوانات . . الأليفة وغير الأليفة ! فكنت تجد بها غزلانا وسلاحف وقردة وطواويس

وببغاوات . . ومئات من العصافير الملونة . . ثم علاوة على ذلك جيء إليها بتمساح صغير ، وقد وضع فى حوض بنى له خاصة فى الحديقة . . قد أحضره لأبى أحد أصدقائه من الضباط الوافدين من السودان ، وذلك تحقيقاً لرغبتى إذ كنت ألحت فى طلب ذلك . . وأبى لا يرفض لى طلباً !

وإليك الحادث الآتى الذى يدلك إلى أى مدى كان أبى يتوخى رضاى ويساير أهوائى :

كنت أرغمه على الجلوس فى الحنطور فى المقعد الصغير الأمامى، على حين أجلس أنا أمامه فى المقعد الكبير،وقد رآه مرة سمو الخديوى على هذه الحال ، وكنا نسير إذ ذاك فى ضاحية المطرية ، وكان سموه قادما من قصر القبة فى طريقه إلى « مسطرد » ، فاستدعى أبى ولامه على ذلك ، سائلا : لم تفعل هذا ؟ فأجابه : سله هو يا أفندينا لِمَ يفعل بى هذا !

. . لذلك عندما قرروا أن أذهب إلى المدرسة نزل علىّ هذا الخبر كالصاعقة ! . إذ كيف أترك كل هذا النعيم وأذهب فأقضى الساعات الطويلة بين جدران أربعة ؟ وقد حاول أبى أن يبطل هذا القرار أو يرجئه ، ولكنه أخفق

أمام تشبث مربيتنا التركية التي كانت تحكم البيت كله بيد من حديد . وأظن أنه لولا هذه المربية الشديدة المراس لما ذهبت مطلقاً إلى المدرسة . ولما رأيت أن لا مناص من الذهاب إلى المدرسة أخذت أعارض ، وكان أبى يساعدنى إذ ذاك خفية على اختلاق المرض ! ولكن أكثر هذه الحيل كانت لا تجوز على المربية المذكورة ويا للأسف !

وأما والدتى ، فلم تكن تتدخل فى هذه المنازعات ، لأنها بطبيعتها رقيقة الحاشية إلى حد بعيد . حتى لقد كان أبى يشبهها بقطة من أنقرة ، بسبب هذه الرقة . وإشارة أيضاً إلى أنها من أصل تركى ، وقد اشتهر هذا النوع من القطط بالرقة والترفع .

وإذا كان أبى قد وفق فى حياته الأدبية فأكبر الفضل راجع إليها بسبب خلقها هذا ، وبسبب طيبتها التى لا حدّ لها . فهى لم توجه إليه لوماً فى حياته مرة ! . مع أنه كان خليقاً باللوم أحياناً ! فهو كثيراً ما كان يستصحب وقت الظهر أصدقاء ، حين عودته إلى المنزل ، فيتغدى معهم . على حين تتغدى هى وحدها . أما العشاء فكان يتناوله معظم الأحايين فى الخارج !

وكان سريع التقلب كالمحيط . فطعام لم يهيأ كما رغب يعكر مزاجه . ولكن إذا كان مزاجه معتدلا فهو لطيف غاية اللطف، يدلل الجميع ويلاطفهم، بل يرهق من حوله منا بالقبلات .حتى (بلوته)[1] كان لها نصيب من هذه القبل !

على أن أهم عيوب أبي أنانيته الشديدة.ترى هل هي من لوازم الشعراء؟ إذ أن «شيلر» عندما يتحدث عن طبع صديقه «جوته» يقول : إنه في الواقع أناني إلى أقصى حدود الأنانية !

فمن أنانية أبي مثلا أننا لم نكن نستطيع أن نتغدى في ساعة معينة ، بل كان لزاما علينا أن ننتظر إلى أن تأتي شهيته ، وكثيراً ما كان يطول هذا الانتظار ؛ لأنه كان يصحو من نومه متأخراً فيفطر بطبيعة الحال متأخراً أيضاً وسبب هذا التأخير في النوم أنه يراجع بعد ما يعود من سهرته ما نظم من شعر طوال نهاره .

ومن ذلك أنه عند ما كنا في أوروبا وكنا نذهب إلى أحد المطاعم كان يغضب منا ، من عليّ ومني ، حين نختار الأصناف المألوفة ،بل كان يجب علينا ، على حسب رأيه هو

---

(١) كلبة كنت أقتنيتها في أسبانيا ثم أحضرتها إلى مصر لدى عودتنا من هناك

أن نختار أصنافاً جديدة مجهولة الأسماء ، كي يختار هو منها في المرة القادمة ، إذا راقته ! فكانت اقتراحاته هذه تفسد علينا الأكلة ، لأن تلك الأصناف المجهولة كانت «مقالب» في معظم المرات . كان حظى منها مرة ضفدعا ، وطبعاً لم آكله ! بل صدّ نفسى عن تناول أى طعام آخر . مع أنه يقال إن طعم الضفدع كالحمام السمين ؟

ألم يكن أبى أنانياً عند ما تخلى عن الخديوى حين ، سافر سموه إلى الحجاز ، ليؤدى فريضة الحج ، ذلك العاهل الذى كان هو شاعر بلاطه ، والذى كان يحبه ويعطف عليه كل العطف ؟ ! وكان أبى كلما روى هذا الحادث فيما بعد يضحك ملء شدقيه . يقول إنه أقنع سموه بأنه ذاهب معه إلى الحج ، ولكن لما بلغ الركب الخديوى بنها ، اختفى منه أبى ، فجعل سموه يبحث عنه ولكن بدون جدوى . ويقول أبى إنه اختبأ إذ ذاك فى منزل أحد أصدقائه . ولما عاد سموه من الحجاز وأخذ يلوم أبى على فعلته ، اعتذر هذا قائلا : كل شىء إلا ركوب ظهر الجمال يا أفندينا ! . ولكى يعوض سموه عن هذا التقصير ، نظم له قصيدة ترحيب

وتهنئة بالحج طويلة عامرة الأبيات ، وهى التى مطلعها :

إلى عرفات الله يا ابن محمد

عليك سلام الله فى عرفات

وها هو ذا يتقدم فى هذه القصيدة إلى الخالق أيضاً سبحانه وتعالى يلتمس صفحه وغفرانه لعدم تأديته هذا الواجب الدينى فيقول :

دعانى إليك الصالح ابن محمد

فكان جوابى صالح الدعوات

وخيّرنى فى سابح أو نجيبة

إليك فلم أختر سوى العبرات

وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى

وجئت بضعفى شافعاً وشكاتى

ومنها :

ويارب هل سيارة أو مطارة

فيدنو بعيد البيد والفلوات

ويارب هل تغنى عن العبد حجة

وفى العمر ما فيه من الهفوات

وتشهد ما آذيت نفساً ولم أضر

ولم أبغ فى جهرى ولا خطراتى

ولا غلبتنى شقوة أو سعادة

على حكمة آتيتنى وأناة

ولا جال إلا الخير بين سرائرى

لدى سدّة خيرية الرغبات

ولا بتّ إلا كابن مريم مشفقاً

على حسدى مستغفراً لعداتى

ولا حملت نفس هوى لبلادها

كنفسى فى فعلى وفى نفثاتى

وإني – ولا منٌّ عليك بطاعة –

أجلّ وأغلى فى الفروض زكاتى

أُبالغ فيها وهى عدل ورحمة

ويتركها النُسّاك فى الخلوات

وأنت ولىّ العفو فامح بناصع

من الصفح ما سوّدت من صفحاتى

إلخ . . .

كما أرسل الأبيات الآتية فى برقية إلى شريف مكة أثناء وجود سموه هناك :

دامت معاليك فينايا ابن فاطمة
ودام منكم لأفق البيت نبراسُ

قل للخديو إذا وافيتَ سدّته
تمشى إليه ويمشى خلفك الناس:

حجُّ الأمير له الدنيا قد ابتهجت
فالعود والعيد أفراح وأعراس

فلتحى ملتنا ! ولتحى دولتنا !
وليحى سلطاننا ! وليحى عباس

حقاً لم يصب شاعر حظوة كحظوته لدى مليكه . فقد كان لا يخيب له رجاء ، كما كان لا يضن عليه بمال . ولكن محبة سموه له كانت تسبب له بعض المتاعب ؛ لأن طابوراً من أصحاب العرائض والحاجات كان يقصد الكرمة كل صباح ، فكان أبى يقابل منهم من استطاع ، فإذا كلّ أو كان معتل المزاج هرب من باب خلفى صنع خصيصاً لهذا الغرض بالحديقة .

وقد تجلى عطف سموه على أبى فى حادث زواج أختى ،

ففضلا عن هداياه الثمينة شرّف سموه الكرمة بزيارته ليلة الزفاف ، ووقف بالحديقة ثم أرسل فى طلب أبى ، حتى إذا أقبل هنأه تهنئة حارة ثم انصرف ، وهى المرة الوحيدة التى قبّل فيها أبى يد سموه شكراً له على هذا العطف الكبير ؛ لأن الجالس على العرش فى ذلك العهد ، كان لا يحضر أفراحا عادية ، كما أن صاحبة السمو زوجته النمساوية شرفت الفرح أيضاً بل مكثت مدة طويلة بجوار سرير أختى التى كانت مريضة فى تلك الليلة من سوء الحظ !

كم من أفراح وليـال ملاح شاهدت الكرمة فى ذلك العهد !

إن عيد شم النسيم مثلا كان يحتفل به فيهـا احتفالا رائعاً فى كل عام ، كان أبى يدعو فيه خاصة جميع الكتاب والشعراء . . إننى ما زلت أتذكر على الرغم من صغر سـنى وقتئذ ؛ صورة العم الجليل خليل بك مطران وهو ينشـد أبياتاً فى أحد هذه الاحتفالات وسط الاستحسان العام . .

وكان الأدباء الأجانب الذين يصادف أن يكونوا بمصر إذذاك يدعون إليها أيضاً ، وكان ممن دعوا منهم الكاتب الإنجليزى

المعروف «هول كين» وقد رحَّب أبى بمقدمه بالأبيات الآتية:

أيها الكاتب المصوِّر صوِّر
مصر بالمنظر الأنيق الخليقِ
إن مصر رواية الدهر فاقرأ
عبرة الدهر فى الكتاب العتيق
ملعب مثّل القضاء عليه
فى صبا الدهر آية الصدّيق
وامحاء الكليم آنس نارا
والتجاء البتول فى وقت ضيق
ومنايا منا فكسرى فذى القر
نين فالقيصرين فالفاروق
دول لم تبد ولكن توارت
خلف ستر من الزمان رقيق
روضتى ازَّينت وأبدت حلاها
حين قالوا ركابكم فى الطريق
مثل عذراء من عجائز روما
بشّروها بزورة البطريق

ضحك المـاء والأقاحى عليها

قابلته الغصون بالتصفيق

زرتها والربيع فصـلا نخفّت

نحو ركبيكما خفوف المشوق

فانزلا فى عيون نرجسها الغضّ

.. صـيانا وفوق خد الشقيق

وبمناسبة تلك الولائم التى كانت تقام بالكرمة فى ذلك العصر، روى أبى لنا القصة الطريفة الآتية:

أقام أبى ذات ليـلة حفلة ساهرة شائقة تكريماً لأمير تركى عظيم، دعى إليها عدد كبير من عظماء البلد وأعيانها، وكان المفروض طبعاً أن يفتتح الأمير المذكور المقصف، ولـكن تقدم الليل والأمير لا يحضر، فاحتار أبى ماذا يصنع؟ اتصل بفندق شبرد حيث ينزل الأمير فقيل له إن سموه معتكف فى غرفته، فاضطرب أبى ثم استقل سيارته وأسرع نحو الفندق، وكم كانت دهشـــته حين ألفى الأمير مريضاً حقاً وكان ذلك من كثرة ما تعاطاه من الشراب! تألم أبى لهذا لأن وليمته التى أعدّها من مدة وأنفق عليها كثيراً

سوف تخفق ، ثم تذكر فجأة ولم يغادر غرفة الأمير التركى بعد ، أن هناك بفندق الكنتننتال أميرين عربيين كريمين، ألا وهما الأمير فيصل (المغفور له الملك فيصل فيما بعد) وشقيقه الأمير عبد الله (ملك شرق الأردن الآن) ، فأسرع إليهما وقص عليهما كارثته مردفاً : ألا يرى الأميران العربيان أن يحلاً محل الأمير التركى فى تصدر هذه الوليمة ؟ ولقد قبلا سموهما هذه الدعوة المرتجلة عن طيب خاطر .. لحبهما لأبى .. واغتباطاً بحلولهما محل الأمير التركى ، لأنه كان هناك نفور بين الترك والعرب إذ ذاك ، وبهذه الوسيلة لم تخفق الحفلة !

* * *

فى ذلك العهد البعيد كان سمو الخديوى يقضى معظم شهور الصيف فى الآستانة (اسطمبول الآن) ، إذ كانت عاصمة الدولة العثمانية بل مقر الخلافة الإسلامية ... ولما كان على أبى أن يرافقه فى أكثر سفره إليها ، فقد اقتنى لنا منزلا لطيفاً فى « بيوك دره » وهى بقعة جميلة على ضفاف البوسفور، ولقد نظم أبى هناك أكثر قصائده التى تغنى فيها بجمال العاصمة التركية القديمة ، وأظن أن ألطف هذه القصائد

القصيدة التى نظمها فى وصف « كوك صو » وهو موقع فتان فى ضواحى الآستانة . ومعنى اللفظين اللذين سمى بهما « ماء السماء » والقصيدة مطلعها :

تحية شاعر يا ماء « جكسو »
فليس سواك للأرواح أنسُ

ومنها : غشيتك والأصيل يفيض تبرا
وينسج للرُبى حللا ويكسو

وتذهب فى الخليج له وتأتى
أنامل تنثر العقيان خمس

وفى جيد الخميلة منه عقد
وفى آذانها قرط وسلس

ولألأت الجبال فضاء سفح
يسر الناظرين ونار رأس

على فلك تسير بنا الهوينا
ومن شعرى نديم لى وجلس

وكان لمنزلنا هذا فى بيوك دره برج يشرف ، نظراً لارتفاعه ، على جميع الضواحى ، كان أبى يقيم فيه الولائم للضيوف

وأكثرهم من المصريين المصطافين الذين كانوا يقسمون أنهم لم يشاهدوا مكاناً أروع من هذا البرج، إذ كنت ترى منه إلى جانب البوسفور، البحر الأسود، على الرغم من بعده منا...

كنت أصعد إليه كثيراً وحدى ثم أحدق النظر فى ذلك البحر الذى ينعتونه بالأسود عساى أشاهد فيه ماء من ذلك اللون ولكن رجائى كان يخيب إذ كان لون هذا البحر لا يختلف عن لون غيره من البحار !

ولكن عيب هذا البرج أنه لم يكن به مصعد، لذلك كان الصعود إليه بالأقدام مرهقاً..

وإذ كان منزلنا مشيداً فى صلب الجبل، كنا نعثر فى الحديقة على ثعابين، وعقارب وسلاحف.. ولكن أكثرها من حسن الحظ كان غير سام..

وكانت توجد بجوارنا سفارة روسيا، وكانت أجمل وأفخم سفارة فى ذلك العهد فى أسطمبول، وكان يقوم على حراستها جنود من القوزاق ذوو ملابس زاهية جميلة موشاة بالقصب وأسلحة براقة، كما كانت لهم شوارب طويلة ولحى كثيفة يلقى منظرها الرعب فى قلوبنا نحن الصغار..

ولم يكن اهتمام الروس بهيئة سفاراتهم مستغربا إذ ذاك ، لأن هذا كان فى عهد القياصرة الذين كانوا لا يضنون بمال فى سبيل الظهور بالأبهة والفخامة . .

أما سفارات الدول الأخرى فكانت فى القرية المجاورة النا وهى « طرابيا » ، وكان لكل سفارة زوارق خاصة تحمل شاراتها ينتقل بها رجالها على البوسفور من شاطىء لآخر . وهذه الزوارق اسمها بالتركى « الكايك » وهى لطيفة المنظر ، رقيقة ، طويلة ، قليلة العرض ، ويلبس ملاحوها ملابس خاصة جميلة وهى سراويل بيضاء فضفاضة وعليها ستر قصيرة حمراء ، أما لباس الرأس فطربوش أحمر قان طويل .

وقد ذكر أبى هذه الزوارق فقال :

تنازعنا المذاهب حيث ملنا
زوارق حولنا تجرى وترسو
لها فى الماء منساب كطير
تسف [1] عليه أحيانا وتحسو

---

(١) أسف الطير : طار على وجه الأرض

صغار الحجم مرهفة الحواشي

لها عرف إذا خطرت وجرس

إذا المجداف حركها اطمأنت

وإن هو لم يحرك فهي رعس [1]

وإن هو جد في الماء انسيابا

فكل طريقه وتر وقوس

ومنزل بيوك دره هذا لم يعد له وجود الآن فقد التهمته النيران في حريق عظيم شب منذ سنوات قليلة ، لأن معظم المنازل في اسطمبول مقامة من الخشب .

ولكن على الرغم من جمال اسطمبول الطبيعي ، فقد كان بها جسر ، « جسر جلطه » ، وهو من أهم جسورها .. كان مشيداً من الخشب القديم المسوس ، وقد انتقده أبي بالقصيدة اللاذعة الآتية :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمر على الصراط ولا عليه

له خشب يجوع السوس فيه

وتمضي الفأر لا تأوي إليه

(١) رعس من رعس الرجل إذا مشى مشياً ضعيفاً

ولا يتكلف المنشار فيه

سوى مر الفطيم بساعديه

وكم قد جاهد الحيوان فيه

وخلف فى الهزيمة حافريه

وأسمج منه فى عينى جباة

تراهم وسطه وبجانبيه

إذا لاقيت واحدهم تصدى

كعفريت يشير براحتيه

ويغشى الصدر[1] فيه كل يوم

بموكبه السنى وحارسيه

ولكن لا يمر عليه إلا

كما مرت يداه بعارضيه

ومن عجب هو الجسر المعلى

على البسفور يجمع شاطئيه

يفيد حكومة السلطان مالا

ويعطيها الغنى من معدنيه

(١) يريد به الصدر الأعظم — وهو كبير الوزراء .

يجود العالمون عليه ، هذا
بعشرته وذاك بعشرتيه
وغاية أمره أنا سمعنا
لسان الحال ينشدنا لديه
(أليس من العجائب أن مثلى
يرى ما قلّ ممتنعاً عليه)
(وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
وما من ذاك شىء فى يديه)

وقد اهتم بهذه القصيدة جلالة المغفور له السلطان عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام . .

وكان السلطان عبد الحميد معروفا لدى الأوروبيين بالسلطان الأحمر ، وهو مظلوم ، على حد قول أبى بهذه التسمية ، بل ضحية تشهير الأجانب لأنه كان حجر عثرة لمطامعهم فى تركيا .. وقد قدم الخديوى أبى لجلالته فوجده عكس ما كان يشاع عنه ... رأى عاهلا حييا ، متواضعا مثقفا للغاية ... وجلالته هو الذى أنعم على أبى بالرتبة الغريبة التى كان يحملها إذ أن رتبته كانت « بك » ومع ذلك كان يلقب « بصاحب

السعادة » ، وقلائل هم فى مصر الذين أنعم عليهم بها . . .

ولما خلع السلطان عبد الحميد ، بيعت محتويات قصره العظيم « يلدز[1] » فى المزاد العلنى ، وكان أبى لا يرغب فى شراء أى شىء منه احتراما لذكرى عاهله ، ولكننا ألححنا عليه فى شراء كلبين هناك من نوع « اللولو » ، وهما لم يعمرا إلا أياما ثم ماتا حزنا على فراق سيدهما ، إذ أضربا عن الطعام وقد قال الطبيب الذى استدعيناه إذ ذاك أن لا علة بهما البتة اللهم إلا الحزن !

كذلك اشترينا من قصر يلدز قطة أنقرية سميناها « زنبل » أى برد بالتركي لأنها كانت فاقعة البياض . . . وزنبل هذه لم تكن عاطفية كالكلبين المذكورين إذ لم تحزن قط على فراق سيدها . . ولكنها أتعبتنا بعاداتها الأرستقراطية . . فهى مثلا لم تكن تأكل إلا لحم الدجاج كما أنها لم تكن تمكث بالأرض ، بل حجر أمى كان مقعدها المختار ، مسكينة أمى ! كم لزمت مكانها الساعات الطويلة دون أن تتحرك كى لا تزعج زنبل أو تقلقها ! ولقد ماتت

---

(١) هو اسم نجم بالتركية

هذه القطة المترفعة ضحية أرستقراطيتها ؛ وإليك ما حدث :

سافرنا ذات مرة إلى الخارج وخلفناها بالمطرية ، بعد ما أوصينا بها الخدم ، بل كلفنا خادما خاصاً بأمر طعامها ، أى أن يشترى لها كل يوم دجاجة . . ولكن حدث أن كان الخادم يأكل لحم الدجاجة ويعطى زنبل العظام ، فأضربت القطة عن الأكل حتى ماتت ! مسكينة زنبل ! ما كان أجملها ! إننا لم نشهد فى حياتنا قطة تعدلها فى نعومة شعرها ، ولا فى ملاسة كفيها .. لقد كانا أملس من الزئبق !

كان أبى يغتبط كثيراً بسفره إلى تركيا ؛ إذ كان يحب الأتراك حباً جماً . ترى أهذا بسبب الدم التركى الذى كان يجرى فى عروقه ؟ لقد أشاد بانتصاراتهم كما بكى لهزائمهم ، بل كان يراهم مجموعة فضائل ، فيقول مثلا فى صبرهم عند الشدائد :

للترك ساعات صبر يوم محنتهم
كتبن فى صحف الأخلاق بالذهب[1]

حتى خيلهم كانت فى نظره موضع إعجاب ؛ إذ يقول فيها :

---

(١) هى القصيدة التى هنأ فيها الغازى أتاتورك بانتصاره فى معركة سقاريا .

... والصبر فيها وفى فرسانها خلق

تو ارثوه أباً فى الروع بعد أب

كما ولدتم على أعرافها ولدت

فى ساحة الحرب لا فى باحة الرحب

والواقع أن الترك شعب عظيم ، وأكثر شيء أعجبنا هناك نظافة القوم ؛ وإليك الحادث الآتى الذى يدلك على مدى نظافتهم :

كنا نتنزه ذات يوم فى عربة « حنطور » بضواحى اسطمبول فأصيبت إحدى عجلات العربة بعطب ، فرجانا عندئذ السائق أن نستريح قليلا فى بيته ، وكنا على مقربة منه ، حتى يصلح العجلة . فترددنا قليلا إذ خشينا أن يكون بيت السائق المذكور غير نظيف ، ولكن قبلنا فى النهاية كى لا نجرح شعوره ؛ وما كان أشد دهشتنا حينما وجدنا البيت آية فى النظافة ! . كما قدمت امرأته القهوة لأمى وللمربية فى فنجانين نظيفين جداً ، أما نحن الصغار فقد أعطت كلا منا قطعة من الحلوى التركية المعروفة « باللكوم » .

استمرت رحلاتنا هذه الصيفية إلى اسطمبول لغاية إعلان الحرب العالمية الأولى ، وكنا لسوء الحظ هناك عندما أعلنت ؛ إذ كان الخديوى إذ ذاك مريضاً بسبب حادث إطلاق الرصاص عليه ، وقد أراد أبى أن نبقى بجانبه ، أى ألا نعود إلى مصر ، ولكن سموه ألح عليه فى العودة قائلا : إن الحرب سوف تطول ، وتركيا ستنضم إلى الألمان ، وأنت معك أسرة كبيرة ، فإذا انقطعت المواصلات مع مصر ، وهو ما سيحدث قريباً ، فسوف تتعبون فى مثل هذه الأحوال ، فلم يسعنا إلا أن نرجع . . على ظهر آخر سفينة !

على أننا لم نكد نصل إلى مصر ، ثم يعزل بعد ذلك الخديوى ، حتى أخذ عدد زوّار « الكرمة » ينقص يوماً بعد يوم ، بل صار الأصدقاء يخشون لقاء أبى كى لا يتهموا بمصاحبة أحد رجال النظام القديم . . طبعاً ، كانت بينهم استثناءات ، لأن الدنيا لا تخلو أبداً من القلوب النبيلة ولو كان عددهم قليلا ... وإلا فما أقبحها ! . .

كذلك يذكر أبى بالخير ذلك الضابط الشاب الذى

كلف بتفتيش الكرمة ؛ فكان يؤدى واجبه البغيض وهو في أشد حالات الخجل ، بل كان يكرر لأبى الاعتذار عن عمله.

مسكين أبى ! كم تألم لهذه الحال ! وبخاصة لجحود الناس . . وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس ، لذلك قابل بارتياح حكم السلطة العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلَّفته بمغادرة الوطن (عام ١٩١٥) ، لينجو من الدسائس ولا يتألم بمثل هذه المشاهد . . ومع ذلك حزن أبى لأنه ترك بمصر أمه المحبوبة ، وكانت مريضة فى حلوان إذ ذاك ، إذ أن شعوراً خفياً كان يوحى إليه أنه لن يراها بعد !

لم يطرق أبى الهجاء إلا نادراً جداً لأنه يراه غير خليق بالشعر الرفيع ... وقد أشار إلى ذلك فى القصيدة التى نظمها ترحيباً بديوان ابن زيدون حين ظهر مطبوعاً لأول مرة فى مصر بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلانى :

...وإذا الهجو هاجه   لمـــــانانه أبى
ورآه رذيـــــلة   لا تماشى التـأدّبا
ما رأى الناس شاعراً   فاضـل الخلق طيّبـا
دسّ للناشـقين فى   زنبق الشعر عقربا !

.. ولكن إزاء ما رآه من جحود الناس فى تلك الفترة التى تلت عزل الخديوى ، اضطر أن يلجأ إليه اضطراراً ، فيقول فى الذين تألبوا عليه إذ ذاك ، فى القصيدة التى شكر بها أرض الأندلس لأنها استضافته، والخطاب موجه إليها :

..شكرتُ الفلك يوم حويت رحلى
فيا لمفـــــارق شكر الغرابا
فأنت أرحتنى من كل أنف
كأنف الميت فى النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى
بوجه كالبغىّ رمى النقــــابا
وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخــــلاقهم كانت خرابا

كما أنه هاجمهم أيضاً فى القطعة النثرية التى كتبها لدى اجتيازنا قناة السويس فى طريق المنفى ، فقال :

« ... إن للنفى لروعهْ ، وإن للنأى للوعهْ ، وقد جرت أحكام القضاءْ ، بأن نعبر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس

محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم ، نفانا حكام عُجْم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم .

ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم فى حقوق الأفراد وسامحوه فى حقوق البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاّد ؟ »

وعندما غادرنا القاهرة ، لم يحضر إلى المحطة لوداعنا إلا عدد قليل من الأقارب والأصدقاء ، للأسباب التى ذكرتها ، وكان بين الحاضرين المرحوم جدى لأمى حسين شاهين باشا الذى سميت باسمه ، وكان رجلا وقوراً بل سيّداً بمعنى الكلمة ، وهو من أصل تركى ، وقد أوصى أبى وهو يودّعه أن يهوّن على نفسه لأن الحرب لن تطول أكثر من ستة أشهر ، بل ربما عدنا قبل ذلك ؛ إذ أن الجيوش التركية تتأهب لتحرير مصر من هؤلاء الإنجليز الشياطين . ولكن الحرب مع الأسف دامت أربع سنوات ، وجدى هذا لم نره بعد ذلك إذ مات ونحن فى المنفى ، وهؤلاء الإنجليز الشياطين

قد مضى على وجودهم فى مصر ثلاثون عاماً . . بعد هذا الحديث ، وما زالوا جاثمين عليها !

***

أول اتصال لنا بأسبانيا العزيزة . . التى أضافتنا فيما بعد خمس سنوات ، كان فى السويس . . إذ هناك ركبنا السفينة الأسبانية التى أقلتنا إلى برشلونة ، وكانت قادمة من جزر الفليبين ، وهى مستعمرة أسبانية قديمة . . من أجل ذلك كان هناك اتصال مستمر بينها وبين أسبانيا . . والسفينة المذكورة لم يكن منظرها مشجّعا ؛ لأنها لم تكن كبيرة الحجم ولا جديدة البناء ، بل كانت سفينة بضاعة أعدّ بها مكان صغير لقبول الركاب ... ولم يكن لدينا الخيار . وقديماً قالوا : إن المضطر يركب الصعب ! . .

ومع ذلك أظهرت سفينتنا أنها قوية حقا ؛ إذ تحملت عاصفة هوجاء بعد خروجنا من بور سعيد بقليل ، سأذكر أمرها فيما بعد . .

ولقد صعد فى السويس أيضاً إلى السفينة أربعة من الرعايا الألمان والنمساويين ، قد أمروا مثلنا بمغادرة مصر ،

ولقد نجوا من مرارة الاعتقال الذى حل بإخوانهم فى القطر إذ ذاك ، بسبب مهنتهم .. إذ كان أحــدهم طبيبا ، والآخرون رهبانا ..

أما نحن فكنا عشرة : أبى ، أمى ، أختى ، بنت أختى ، وكانت سنها وقتئذ بضعة أشهر لا غير ... ثم على ، أنا ، المربية التركية ، خادمتان والأوسطى سيد الطاهى .. ولما كان عددنا كبيراً ، كنا موضوع تفكهة لأبى الذى كان يسمينا La ménagerie (أى الزريبة !) ..

أما زوج أختى ، حامد العلايلى بك ، فمصيره كان أسوأ من مصيرنا إذ سجن أولا فى القلعة ثم رحل بعد ذلك إلى مالطة حيث اعتقل أسير حرب ! . وكان قبل هذه الحرب المشئومة تشريفاتيا فى السراى ..

كان هنالك على ظهر السفينة ، غيرنا وغير هؤلاء الألمان والنمساويين ، بضعة ركاب أسبان عائدين إلى الوطن وقد جن أحدهم بسبب طول الرحلة ؛ لأنه مضى على السفينة المذكورة أكثر من شهر فى طريق العودة .. على أنه يقال إن مثل هذا الجنون وقتى ، يزول بوصول المريض إلى البر

وكان هذا المجنون رجلا فى الخمسين مهلهل الثياب ترك شعره ولحيته بدون حلاقة ، وكان يحدث نفسه طول الوقت ، وكان معه بحار يقوم بحراسته فى نزهته اليومية على سطح السفينة كي لا يلق بنفسه فى اليم . . ليس غير ، لأن المسكين كان فى غير ذلك وديعاً لم يحاول الاعتداء على أحد قط . .

وكانت بالسفينة أيضاً شحنة كبيرة من الثيران ؛ لأن أسبانيا أكثر البلدان استيراداً لها بسبب حفلات المصارعة التى يحبها الشعب الأسبانى حباً جماً، على مافيها من قسوة .

أما العاصفة الهوجاء التى سبق التنويه عنها ، فقد صادفتنا بعد خروجنا من بور سعيد بيوم ، وقد بدأت بعد الظهر واستمرت يومين كاملين كانت سفينتنا خلالها أرجوحة فى أيدى الأمواج . وقد رأى القبطان إزاء الحالة الخطيرة التى كنا فيها أن يخفف عبء السفينة ، وذلك بأن يلق فى البحر جميع هذه الثيران !

وقد تم ذلك على الرغم من توسلات أبى . كم كان منظرها بشعاً إذ ذاك ! كانت الثيران المسكينة عندما تلق

إلى الموج تحاول العوم فإذا كلت أسلمت نفسها للقضاء وهى تصيح صياحا مؤلماً كأنها تشهد السماء على هذا الظلم !

وكان الرهبان فى هذه الأثناء يرتلون ؛ وعندما سكنت العاصفة بعد ذلك ، سألت أبى : أدعاؤهم هو الذى أنقذنا من الغرق ، فأجابنى : بل هى دعوات جدتك الطيبة يا بنىّ وبركاتها .

أما الطبيب ، وهو نمساوى ، فقد أبدى همة عظيمة فى تخفيف وطأة دوار البحر علينا . وقد أحببناه من تلك اللحظة ، كما صار صديقاً حميما لأبى طوال الرحلة ثم مدة المنفى فى أسبانيا ، واستمرت هذه الصداقة بعد عودتنا إلى مصر بعد الحرب ؛ إذ عاد هو أيضاً إليها . وكان بها طبيباً مشهوراً من قبل لدى الجاليتين الألمانية والنمساوية . ومع أنه كان إخصائياً فى الأذن والحنجرة ، فقد برع فى بعض فروع الطب الأخرى ؛ مثال ذلك أنه أنقذ قريباً لنا من حمى التيفوئيد ، على الرغم من خطورة الحالة ، كما خلع ضرساً لإحدى قريباتنا . وهى تقسم أنها لم تشعر بأى ألم عند الخلع لأن يده كانت غاية فى الخفة .

ومما حببه إلى أبى سعة إطلاعه فى شئون السرطان ، لأن أبى كان يخشى هذا الداء كثيراً ، إذ قرأ مرة أن أكثر الناس تعرضاً له هم المفكرون . . لذلك كان عند ظهور أى دمل فى لثته أو على لسانه يتوجه من فوره إلى عيادته . .

كذلك حببته إلى أبى أخلاقه البوهيمية ، فلم يكن يحفل بالمظاهر ، ولا يتقيد بموعد ، ولما كنا فى أسبانيا ، كان لا يمكث فى العيادة إلا المدة الكافية لجمع مصروفات سهرته ، فإذا تم له ذلك أغلق العيادة وانصرف ! وكنت إذا لمته على هذا التصرف وقلت له إن عليه أن يحسب حساب المستقبل ، أجاب ساخراً بأن الحياة قصيرة جداً . . ويجب اقتناص الفرص قبل زوالها . . والواقع أن السهر كان مغرياً فى أسبانيا وبخاصة فى برشلونة (التى اتخذناها مقراً لنا هناك) لأن أهلها من أكثر الناس حبا للمرح والسرور ، ولأن ملاهيها كانت تظل مفتحة الأبواب حتى . . صياح الديك ! من أجل ذلك كنت قلما تجد موظفاً يذهب هناك إلى عمله قبل العاشرة ! .

على أن طبيبنا هذا عندما عاد إلى مصر وبدأ الشيب

يدب فى رأسه ، أصبح يحرص على جمع المال فلا يرد الزبائن كما كان يفعل فى أسبانيا . . لذلك ترك ثروة لا بأس بها عندما مات فى عام ١٩٣٥ ، أى بعد وفاة أبى بثلاثة أعوام . . وقد وهبها لابن (عرجيه) الذى كان قد تبناه . ومن حسنات هذا الطبيب أنه كان يعالج الفقراء مجاناً ، مع أنه كان شديداً فى معاملته للأغنياء !

وكان يحب المصريين حبا جما وبخاصة المسلمين .. حتى لقد أسلم بعد عودته إلى مصر بقليل .. وقد اختار اسم حسين مثلى .. مجاملة لأسرتنا ..

عندما وصلنا إلى برشلونة ، أقمنا عدة أسابيع فى فندق فى قلب المدينة لأن حياة الفنادق لذيذة مسلية ، فكل يوم تشهد مناظر مختلفة ووجوها جديدة .. ولكن نفقات مثل هذه الحياة كانت باهظة وبخاصة لأسرة كبيرة مثلنا .. كما أن النقود التى كان يرسلها إلينا وكيلنا فى مصر كانت محددة بأمر السلطة العسكرية ، حتى لا نستطيع — على حد زعمها — أن نساعد بها أعداء بريطانيا العظمى ! .. ولم يكن هذا المنع خاصا بنا ، بل كان يشمل جميع المصريين فى الخارج إذ ذاك ..

لذلك لم نلبث أن استأجرنا منزلا فى ضاحية جميلة من ضواحى برشلونة تدعى « ڤلڤدريرا » ، وهى مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، لذلك كان فى استطاعتنا أن نشهد بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل . . المشترك . . والسفن وهى رائحة غادية فيه ، ليل نهار . . فيبعث منظرها فينا الحنين إلى الوطن ومنظرها هذا الذى أوحى إلى أبى أن يقول :

. . . مستطار إذا البواخر رنّت
أول الليل أو عوت بعد جرسِ
راهب فى الضلوع للسفن فطن
كلما ثرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيل
ما له مولعا بمنع وحبس ؟
أحرام على بلابله الدو
ح . . حلال للطير من كل جنس ؟

والحنين إلى الوطن فى الشعر الذى نظمه أبى بالأندلس كثير . فقصيدته التى يعارض فيها قصيدة ابن زيدون فى

ولادة بنت المستكفى ملأى بذكر الوطن والحنين إليه ، وإليك بعض ما جاء فيها :

يا نائح الطلح [1] أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقصّ علينا غير أن يدًا
قصّت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكًا غير سامرنا
أخا الغريب : وظلاً غير نادينا

ومنها: لكن مصر وإن أغضت على مقة
عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفّت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربُنا
وأَرْبَعٌ أَنِسَتْ فيها أمانينا
ومطلعٌ لسعود من أَواخِرنا
ومغرب لجدود من أوالينا

(١) واد بظاهر أشبيلية كان ابن عباد الملك الشاعر شديد الولع به .

بِنّا فلم نَخلُ من رَوْح يراوحنا

من بَرِّ مصر وريحانٍ يغادينا

كأم موسى على اسم الله تكفلنا

وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

ومنها : أرض الأبوّة والميلاد طيبها

مَرُّ الصبَا فى ذُيولٍ من تصَابينا

كانت محجّلة فيها مواقفنا

غُرّاً مسلسلة المجرى قوافينا

فآب من كُرَةَ الأيام لاعبنا

وثاب من سِنَةَ الأحلام لاهينا

ولم ندع لليالى صافياً فدعت

(بأن نَغَصَّ فقال الدهر : آمينا)

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقةً

والبرّ نارَ وَغىً والبحر غِسْلينا

سعياً إلى مصر نقضي حق ذاكرنا

فيها إذا نسى الوافى وباكينا

كنز بحلوان[1] عند الله نطلبه

خير الودائع من خير المؤدّينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا

لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر ، أو له شجناً

لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

***

وكان لمنزلنا هذا فى « ڤلڤدريرا » كنيسة صغيرة خاصة به فى الحديقة . كنا نستعملها كسلاملك لقربها من الباب الخارجى . ومثل هذه الكنائس الخاصة الصغيرة كثيرة فى أسبانيا ؛ لأن الأسبان كانوا فى ذلك الوقت من أكثر شعوب العالم تديناً .

وكانت تقطن بجوارنا أسرة نبيلة أسبانية ، وكان لها ابن يشاطرنى اللعب ، نلعب تارة عنده وأخرى عندنا ؛ وكان أكثر لعبنا لعبة الحرب . أى كانت لنا عساكر نحفر لها خنادق فى الحديقة ؛ إذ كنا نقلد ما نسمعه عن الحرب ،

---

(١) اشارة إلى والدته

ولكن كنا نتشاجر على القيادة . على أينا يكون القائد الألمانى العظيم هندنبرج . إذ كل منا يتمنى أن يكون إياه.

وهذا الشاب ، قتل الجمهوريون الحمر أبويه خلال الحرب الأهلية ، عام١٩٣٨ ، لا لسبب إلا لأنهما من النبلاء ، أما هو فقد حارب فى صفوف القائد فرانكو ، وقد فقد التعس عينه اليمنى فى إحدى المعارك . مع أنه كان وهو طفل ثم وهو شاب ، جميلا جداً .

ولما كان كل منا يجمع طوابع البريد ، كنا نتبادلها ، فأعطيه أنا الطوابع المصرية التى ترد على الخطابات المرسلة إلينا من مصر . فى حين هو يعطينى طوابع أسبانيا ومستعمراتها . .

وكان أبى يشجعنى فى هوايتى هذه ، قائلا إنها تحبب الأطفال فى تعلم الجغرافيا .

***

أما النقود التى كانت ترسل إلينا شهريا من مصرفهى ٢٠٠ج كانت تصلنا حوالى ١٢٠ ج فقط ، لأن الجنيه الإنجليزى الذى كنا (وما زلنا !) مرتبطين به كان فى هبوط

مستمر إذ أن حالة انجلترا وحلفائها الحربية كانت سيئة جداً إذ ذاك .

حقاً ! إن الانجليز قوم محظوظون . فهم يكسبون الحروب دائماً فى الشوط الأخير . كما حدث فى الحرب الأوربية الثانية ! ومع ذلك ، كانت هذه النقود القليلة تكفينا كل الكفاية ؛ لأن الحياة كانت رخيصة فى أسبانيا فى ذلك الوقت . مثال ذلك أننا كنا نشترى مئة البرتقالة بخمسة قروش !

***

كان أبى يعطينى بنفسه دروساً فى اللغة العربية طوال مدة المنفى ، كما كان يدرس لأخوىّ . أما العلوم الأخرى فكنت أتلقاها فى مدرسة ألمانية التحقت بها ، إذ كنت شديد الرغبة فى تعلم اللغة الألمانية . أما أخواى فكانا يتعلمان الفرنسية وبقية العلوم على مدرس فرنسى يحضر خصيصاً إلى المنزل .

كذلك شرع أبى يتعلم اللغة الأسبانية . وقد تعلمها فعلا ولكن نطقه فيها لم يكن سليما ، لذلك كان يثير ضحكنا

كلما أخطأ فى النطق أمامنا . مما كان يغضبه ويجعله يصيح : حقاً ! أنتم أولاد غير متربيين !

وما زلنا محتفظين إلى اليوم بكتاب النحو الأسبانى الذى كان يتعلم فيه . وقد غطى غلافه بأشعاره ؛ لأنه كان من عادته أن يكتب على أية غلافة كتاب بيضاء تصادفه ! وهذه الأشعار من كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام » الذى ألفه كله هناك ، كما ألف فى تلك الحقبة رواية « أميرة الأندلس » .

***

لم يجد أبى حوله أصدقاء فى برشلونة ؛ لأن هؤلاء لا يكونون عادة إلا حيث تكون المنفعة ، وأبى كان لا يملك إذ ذاك نفعاً ! بيد أن الطبيب النمساوى الذى أشرت إليه ، كان يرفه عنه كثيراً بصحبته المسلية غير المغرضة . كما أن مكانه كان محفوظاً عندنا على مائدة الطعام ، كل يوم أحد ظهراً .

تعرف أبى أيضاً هناك بتاجر سورى من المهجر لطيف المعشر فيلسوف ، كان قد جمع فى البرازيل نحو عشرين ألف جنيه

وكان ينوى العودة إلى وطنه ، وقد جمع هذه الثروة من بيع الأقمشة للسيدات فى دورهن ، لأن السيدات البرازيليات كسالى يؤثرن شراء لوازمهن وهن قابعات فى كسور دورهن كما أنه كان يبيع لهن بالتقسيط لتيسير عمله ، لأن معظمهن كن من الطبقة المتوسطة ولكن مما آلمه فى جمع هذه الثروة السلالم الكثيرة التى كان يضطر إلى صعودها إذ ذاك ، لأن أكثر الدور التى كان يذهب إليها ، لا مصاعد بها . وقد أضاع المسكين هذه الثروة فى برشلونة فى بضعة أسابيع بالبورصة ... ولما سأله أبى عما ينوى عمله بعد ذلك أجاب فى كل بساطة بأنه عائد إلى البرازيل ليصعد السلالم هناك من جديد !

كان هناك فى برشلونة مصرى واحد غيرنا فى ذلك الوقت ، وهو وجيه يعرفه أبى من مصر . . كان موضع تسلية أبى بتصرفاته الغريبة الشاذة . مثال ذلك : أنه قرر يوما بدون مناسبة أن يقتصد مع ما كان فيه من رغد العيش إذ يصله هو وحده (كان أعزب) مقدار مايصلنا نحن مجتمعين وذلك بفضل مركزه الاجتماعى الكبير فى مصر . . فاستبدل

بالشقة الجميلة التى كان يقطنها أخرى حقيرة ضيقة .. كما اتخذ
إجراءات أخرى اقتصادية . فى الملبس والخدم .. إلا الأكل !
إذ كان أكولا جداً . . وفعلا جمع خلال سنة ما يربى على
ألف جنيه . . ثم إذا به يدفعها كلها ، ثمناً لأثاث غرفة أكل !
ولكن هذا الأثاث مع الأسف لم يدخل فى غرفة أكله
الجديدة لصغر حجمها ، فاضطر أن يبيعه ثانية بخسارة عظيمة

يقال إن هذا الوجيه كان ثريا جداً فيما مضى ، وقد
كان له يخت جميل يطوف به فى الصيف على شواطىء
البحر الأبيض . وبمناسبة هذا اليخت أذكر عن هذا الوجيه
القصة العجيبة الآتية :

هاجمه ذات مرة أحد الصحفيين مهاجمة مرة تضايق
منها الوجيه جداً ، ففكر فى الانتقام من الصحفى ، فدعاه
إلى وليمة فى قصره أفهمه خلالها أنه تغاضى عما حدث ، وأنه
يجب أن يصبحا صديقين . ثم دعاه بعد ذلك إلى السفر معه
على ظهر يخته فى نزهة إلى اسطمبول ، ولكن هذا الصحفى
اعتذر بأن حالة ملابسه لا تسمح له بالسفر فى مثل هذه
الرحلة الأنيقة ، عندئذ أخرج الوجيه من جيبه ورقة بخمسين

جنيهاً وأعطاها إياه ، حتى لا يكون له عذر فى التخلف . .
وفعلا سافر الصحفى على اليخت . ولكن لم يكد اليخت يبتعد عن الإسكندرية حتى أمر هذا الوجيه البحارة فقبضوا على الرجل ثم أوثقوه بحبل من وسطه ثم أخذوا يلقون به فى الماء ، فإذا أشرف على الغرق أخرجوه ثانية . ثم عادوا فأوثقوا ركبتيه إلى القرب من رأسه ، وأمر بأن يوضع على الفرن ويرفع ثم يوضع ويرفع وهكذا ، حتى أصبح المسكين غير قادر على الجلوس أو النوم على ظهره . وقد ظل هذا العذاب طوال الرحلة المشئومة !

ولما بلغوا اسطمبول شكا الرجل إلى أبى هذا الوجيه راجياً إبلاغ شكواه إلى سمو الخديوى ، وكان يصطاف وقتئذ هناك ،وفعلا أوصلها أبى إلى سموه فدعا سموه الوجيه وعنفه على فعلته كما أمره بترضية الصحفى بمبلغ كبير من المال .

أعود الى أبي فأقول إنه لا ريب عندى فى أنه كان بوهيمى النزعة إلى حد بعيد ، فكثير من تصرفاته يدل على ذلك . .

ألم يكن بوهيمياً ، حين كان يعاونني

على الهروب من المدرسة فى المطرية ؟ كذلك الحادث الآتى :
الذى وقع ونحن فى برشلونة دليل ساطع على ذلك :

ركبنا « الأوتوبيس » ذات يوم (هو وأنا) فصعد رجل عملاق بادى الترف والثراء ، يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفى فمه سيجار ضخم ، ثم ما لبث أن استسلم للنوم فى ركن من العربة ، وراح يغط غطيطاً يرهق الأعصاب ، وصعد نشال فى مقتبل العمر جميل الصورة وهمّ بأن يخطف السلسلة ولكنه أدرك أن أبى يلمحه فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها : هل آخذها ؟ فأجابه أبى برأسه « خذها » فنشلها الشاب ونزل . بعد ما حيا أبى برفع قبعته له ! ولم يكد ينزل حتى التفتّ إلى أبي وقلت : هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم ؟ فأجاب : شىء عجيب يا بنى ! لو كنت مقسما الحظوظ . فلمن كنت تعطى السلسلة الذهبية ؟ أكنت تعطيها عملاقا دميا أم شابا جميلا ؟ فقلت : كنت أعطيها الشاب الجميل ، فأجاب ببساطة : ها هو ذا أخذها !

مثال هذه البوهيمية أيضاً تصرفه الآتى :

كان فى حاجة إلى طبيب أسنان لحشو بعض الضروس

فعرفه صديقنا الطبيب النمساوى بطبيب آخر نمساوى أيضاً للأسنان . ولكن أبى بدلا من أن يذهب إلى هذا الطبيب فى عيادته كما يفعل سائر الناس ، كان يكلف الطبيب المسكين بالحضور إلى المنزل وهو متأبط آلة العمل ! ولولا أن هذا الطبيب كان قوياً لما تيسر له حملها ! وحجة أبي فى ذلك أن أعصابه لا تتحمل الانتظار فى العيادة، والمدهش أن الطبيب كان يستجيب لمثل هذا الطلب العجيب ! حقاً ! ما كان أصدق أبى عند قوله عن النمساويين : إنهم أرق شعوب أوروبا وأطيبهم أخلاقا ! والواقع أن أبى كان يحبهم . وربما كان قد تأثر فى ذلك من معاشرته لسمو الخديوى ؛ لأن المغفور له عباس الثانى كان شديد التعلق بهم ، وقد يرجع تعلق سموه بهم إلى أنه تعلم فى ڤينا حيث كان موضع حفاوة إمبراطورهم المحبوب فرنسواه يوزف وإكرامه . كذلك لقى سموه فى أثناء الحرب العالمية الأولى كل عون من جلالته حين اضطر إلى مغادرة اسطمبول والالتجاء إلى النمسا ، وذلك على أثر تجهم الأتراك له . أو — على الأصح — تجهم حزب الاتحاد والترقى الذى كان يحكم تركيا إذ ذاك .

وقد تعرف أبى ونحن فى برشلونة بأديب من دعاة الانفصال ، أى الذين يريدون أن تنفصل مقاطعة قطلونيا التى عاصمتها برشلونة عن سائر أسبانيا . وحجة هؤلاء أنهم ليسوا أسباناً ، بل هم يختلفون عنهم فى كل شىء ؛ فى اللغة ، وفى العادات . كما أنهم كانوا دائماً معروفين بالنشاط والاجتهاد فى جميع العصور ، فى حين أن الأسبان ، على حد قولهم ، خاملون ، يعيشون على كد القطلانيين ونصبهم . ومما زاد فى تعلق هذا الأديب بأبى ، أن أبي مصرى ومصر مثل بلده قطلونيا ضحية احتلال أجنبي . كان ينشد أبى قصائد وطنية طويلة وكثيرة نظمها باللغة القطلانية أولا ، وهى لا يفهمها أبى طبعاً ، ثم يترجمها له بالفرنسية . وكان أبى يحمل على نفسه فى ذلك . لا لشىء إلا لأن الأديب المذكور كان أبخر .

وكنا اقتنينا فى ذلك الوقت كلباً من أصل ألمانى ، من فصيلة الذئب ، وكان هذا الكلب مع الأسف لا يميل إلى هذا الأديب ؛ فقد أطبق ذات يوم وبدون إنذار فى عجزه ، ولكنه لحسن الحظ ، لم يظفر فى هذا الهجوم الغادر إلا بقطعة من قماش البنطلون ليس غير .

كنا نحيا فى برشلونة حياة أسرية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة ، أى كنا نستطيع أن نخرج كلنا معاً للنزهة رجالا ونساء ، وهو أمر لم يكن متيسراً فى مصر إذ ذاك بسبب الحجاب . الذى لم يقض عليه إلا فى خلال الثورة المصرية . .

فكنا نقوم برحلات جميلة فى أيام العطلة فى ضواحى برشلونة الفاتنة ، ولقد جمعت المدينة المذكورة ميزتين : الجبل والبحر .

وقد كنا نؤثر النزهة فى الأودية والجبال وبخاصة فى فصل الربيع ؛ إذ للغابات رائحة ذكية عجيبة إذ ذاك ، مصدرها أشجار الصنوبر ، وكنت أطارد هناك الفراش حيث يوجد بكثرة وفى ألوان زاهية رائعة ، حتى ليخيل للمرء أنه قادم من الجنة ؛ وكنت أحفظه فى علب خاصة غطاؤها من الزجاج ، وقد كان أبى يعارضنى فى ذلك إذ كان يرى عملى هذا بعيداً عن الشفقة والإنسانية ؛ وكنا نصعد أحياناً فى مثل هذه الرحلات إلى قمم الجبال العالية إلى حد أننا كنا نرى السحاب فى متناول أيدينا فنفزع ونعجل فى النزول خشية

أن يكون به شياطين مختبئة فتخطف أحدنا !

* * *

أما آثار العهد الإسلامى ، فلم يكن هناك شىء يرى منها . . . فى برشلونة ، لأن العرب لم يدم حكمهم فى تلك المناطق الشمالية طويلا ، وقد كان مضطربا ، على عكس حكمهم فى الجنوب الذى يضم آثاراً عربية كثيرة بل عظيمة وبخاصة فى مقاطعة الأندلس . .

ولا يشاهد المرء آثار العرب فى الأندلس فحسب ، بل يحس هناك كذلك بجوهم . . كما ألفينا به أيضاً ، فى غبطة وسرور ، سماء الشرق الصافية اللازوردية . . التى حرمنا منها طويلا فى برشلونة . . حيث يكثر الغيم والمطر.

على أنه لم تتيسر لنا زيادة الأندلس إلا بعد عقد الهدنة ، عندما رفعت القيود العسكرية التى كانت مفروضة على إرسال النقود إلى الخارج ، إذ لم يكن فى استطاعتنا قبل ذلك أن نبعثر ما يصلنا من مال فى التنقل من مدينة إلى أخرى .

* * *

وإذا كنا قد اخترنا برشلونة للإقامة طوال مدة المنفى

فيرجع ذلك إلى أن بها جميع أسباب الراحة والعمران . . ففى الجنوب مثلا ، فى ذلك العهد ، كانت هناك قطارات محاية لا مراحيض بها !

كما كانت برشلونة أكبر مدن أسبانيا ، بل هى أكبر من مدريد نفسها ، العاصمة ! ومع طول إقامتنا فى برشلونة لم يتسرب الملل إلى نفوسنا ، لما عليه المدينة من جمال وبهجة كما ذكرت . . وبخاصة نحن الصغار إذ وجدنا بها أشياء لم نجدها فى مصر : الجبال ، الغابات . . ثم الثلج الذى كان موضع تسلية عظيمة لنا ، إذ كنا نتقاذفه فى حماسة عظيمة . . لذلك عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر ، أذرفنا الدمع ونحن نغادر ميناءها . . أما بالنسبة للكبار ، أى لأهلنا فلم تخل هذه الإقامة من قلق دائم مستمر بشأن النقود التى كانت ترسل إلينا من مصر ، فقد كانت تتأخر طويلاً أحياناً بسبب ظروف الحرب . . . إلى أن انقطعت كلية فى وقت من الأوقات . . وذلك على أثر ما نشرته إحدى الجرائد الإنجليزية الكبيرة التى تصدر فى لندن من أن شاعراً عربياً كبيراً مقيما فى أسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة

الحلفاء ! فظنت السلطة العسكرية الانجليزية فى مصر انه أبى ، لذلك منعت على سبيل الانتقام ، إرسال هذه النقود إذ من ذا يكون الشاعر العربى المقيم فى أسبانيا إذ ذاك غيره ؟ وقد استمر هـذا المنع ستة أشهر اضطرت والدتى وأختى خلالها إلى رهن حليهما . . ثم رأى أبى أن يتصل بالسفير البريطانى فى مدريد . وكان قد تعرف به خـلال وجوده فى برشلونة فى زيارة قصيرة ، وذلك فى دار الوجيه المصرى المذكور ، فلم يتأخر السفير فى تلبية رجاء أبى . . لأنه هو أيضاً كان شاعراً لحسن الحظ . فتوسط عن طيب خاطر لدى السلطة العسكرية فى مصر ، وبفضل هـذا السفير سمحت السلطة بإرسال النقود ثانية . .

كان هذا السفير مثال الأدب والرقة ، إذ عرض على أبى أيضاً ، على معرفته البسيطة به ، أن يقرضه بعض المال فى حين لم يفكر الوجيه المصرى فى ذلك !

ومع أن الهدنة عقدت فى سنة ١٩١٨ ، فلم يسمح لنا بالعودة إلى مصر إلا فى أواخر ١٩١٩ ، وكان المانع فى العودة فى هذه المرة : السلطات المصرية ! .. لا السلطات الإنجليزية ؟

ولـكن لما كانت القيود المالية قد أزيلت إذ ذاك ، استطعنا أن نتجول فى اسبانيا كما كنا نشتهى ونريد .

***

بدأنا تجوالنا بزيارة جزر البليار لقربهـا من برشلونة فهى على بعد ليلة منها بالبواخر السريعة . وأهم مدنهـا أو بالأحرى قراها ، « پلما » فى جزيرة ميورقه .. ومعظم سكانها صيادو سمك . . أما رواد الجزيرة فأكثرهم فنانون ، لأن المناظر الطبيعية فى تلك البقعة الجميلة لامثيل لها ، كما أن الجو فيها صحو معتدل . .

كذلك يقصدها كثير ممن هم حديثو عهد بالزواج ، لقضاء شهر العسل فيها . . ولقد كان بعضهم معنـا على ظهر السفينة . .

من كبار الأدباء الذين أحبوها فى الجيل المنصرم، الكاتبة الفرنسية النابغة چورچ صاند . . والموسيقار البولونى العظيم شوپان ، ولقد كانت الجزيرة مسرحا لحبهما فترة من الزمن

قضينا فى «پلما» أسبوعا مركأنه حلم جميل .. ولقد صحبنا فى هذه الرحلة الجميلة صديقنا الطبيب النمساوى ..

سافرنا بعد ذلك إلى مدريد العاصمة ، وهى أكثر المدن التى شاهدتها أرستقراطية ، فمنازلها بل أهلها تبدو عليهم سيماء النبل . وهى على عكس برشلونة ، فبينا برشلونة مجدة مجتهدة ، كلها مصانع ومعامل إذ بمدريد مدينة الوجاهة ليس غير . . إنها تحيا عالة على سائر المملكة ، كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة ترى من الطبيعى أن يقدم إليها رعاياها المخلصون الهدايا والقرابين !

وبمدريد متاحف ثمينة جداً ، أهمها البرادو الذى يضم صوراً زيتية رائعة للمصورين الأسبان المشهورين : ڤلاسكث موريليو ، جريكو . . كذلك هناك صور للمصورين الهولنديين النابغتين : روبنس وڤان دايك . . ولكن أروع ما شاهدنا فى مدريد قصر الاسكوريال ، وهو فى الضواحى ، على بعد ساعة على ما أذكر ، بالسيارة من المدينة ، ولقد شيده الملك فيليب الثانى ، واستغرق بناؤه أعواما طويلة . .

وبه سرداب يضم رفات ملوك أسبانيا الكاثوليك ، وقد وضعت فى توابيت فخمة من المرمر الخالص ، وهى آية فى دقة الصنع وللاسكوريال مكتبة عظيمة ، رأينا ضمن

محتوياتها بعض المخطوطات العربية . وقد أثرت فى نفوسنا رؤيتها . .

مما لفت نظرنا أيضاً هناك غرفة نوم فليب الثانى . فهى على جانب عظيم من البساطة . إذ خلت من كل زينة بل طليت جدرانها بالجير ! . . وذلك مع ما كان لهذا العاهل الكبير من جاه وسلطان . . والسبب فى هذه البساطة يرجع إلى أخلاق الرجل . إلى تقشفه . بل إلى تدينه . ولو أنه كان متعصباً فى هذا التدين ، بل كان قاسياً ، ففى عهده نشطت تلك الهيئات الدينية الممقوتة المعروفة بمحاكم التفتيش ، التى كان يقدم إليها كل من أتهم حقاً أو ظلماً بالكفر . والكافر فى نظر القوم كل من لم يكن مسيحياً كاثوليكيا . والتعذيب فيها ، كان على أنواع شتى يفوق فى القسوة كل ما يتصور ؟ والعجيب فى أمر هذه المحاكم أن أعضاءها كانوا من كبار قساوسة أسبانيا إذ ذاك ! وربما كان أبى متأثراً بعد ما عرف الكثير من أمر تلك المحاكم ، عندما قال فيما بعد ، فى قصيدته فى توت عنخ آمون ، وذلك فى باب الدفاع عن الفراعنة الذين شهر بهم بعض كتاب الغرب من أجل تسخيرهم مئات

الآلاف من العمال فى تشييد مقابرهم ومعابدهم الفخمة :

ولست بقائل ظلموا وجاروا
على الأجراء أو جلدوا القطينا[1]

فإنا لم نوق النقص حتى
نطالب بالكمال الأولينا

وما (البستيل) إلا بنت أمس
وكم أكل الحديد بها سجينا

وربة بيعة[2] عزت وطالت
بناها الناس أمس مسخرينا

مشيدة لشافى العمى عيسى
وكم سمل[3] القسوس بها عيونا!

وأهل مدريد يحبون المرح كثيراً كما يحبون الجلوس طويلا فى المقاهى ، بل هم يقضون معظم أوقاتهم فيها وهم يتناقشون فى السياسة ، التى هى شاغلهم الأكبر ، والأسبان أكثر الشعوب أحزابا ، فالحزب الملكى عندهم مثلا ينقسم إلى قسمين : قسم يناصر أسرة البوربون وقسم مع أتباع

(١) الخدم . (٢) الكنيسة . (٣) سمل العين فقأها .

الدون كارلوس . هذا فضلا عن الجمهوريين ، والعسكريين ، والشيوعيين ، والفوضويين الخ . .

لذلك كانت الاضرابات والثورات كثيرة هناك ، وآخرها تلك الحرب الأهلية الدامية التي قامت فى سنة ١٩٣٦ بين الفاشست والشيوعيين ، واستمرت نحو ثلاث سنوات .

أما نحن ، فقد رأينا فى أثناء إقامتنا هناك ، ثورتين خطيرتين بين العمال والحكومة ، اضطر الجيش فيهما إلى استعمال مدافع الميدان ! ولما كانت مدريد محاطة بجبال « الجودراما » القاحلة ، فإن جوها مع الأسف متعب ، ففى الصيف حرها لا يطاق ، أما شتاؤها فهو مضرب الأمثال فى البرودة . وهناك مثل أسبانى يقول : هواء مدريد فى الشتاء نفاذ إلى حد أنه يقتل الرجل دون أن يطفىء شعلة ، لذلك زرناها نحن فى فصل الربيع .

ومع ما كان من جمال مدريد وروعتها ، وكثرة المتنزهات فيها والحدائق العامة المنسقة أجمل تنسيق ، لم نمكث فيها طويلا ، إذ كان أبى متعجلا فى السفر إلى الأندلس ! . .

أول بلدة حللنا بها فى أرض الأندلس كانت قرطبة .. ولكن يا لخيبة الأمل ! إنها قرية كبيرة ليس غير ، فعدد سكانها لم يعد يتجاوز الخمسين ألفاً ، كما أن طرقاتها ضيقة قذرة.

رب ! أهذه قرطبة التى كانت عروس الأندلس فى العهد العربى الزاخر ؟ أهذه حاضرة الإسلام التى كانت تضم مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها إذ ذاك المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التى كان يحج إليها من جميع أنحاء العالم ؟ وا أسفاه ! كل هذا قد ضاع واندثر كأن الأرض قد أنشقت وابتلعته !

لم يبق من تلك الآثار المجيدة فى قرطبة سوى المسجد الذى شيده عبد الرحمن الداخل ، وهو على الرغم من نوائب الدهر ما زال يأخذ العيون بروعة عمده ورشاقتها . . وكان الملوك المسيحيون حينما استولوا على قرطبة ، قد حولوا جزءاً منه إلى كنيسة، ولكنى علمت أن الحكومة الأسبانية فى عهد الجمهورية قد أعادت المسجد إلى حالته العربية القديمة . . حقاً ! ما كان أصدق أبى حين قال لدى مشاهدته قرطبة هذه البائسة المهجورة :

.. لم يرعني سوى ثرى قرطبي

لمست فيه عبرة الدهر خمسى

يا وقى الله ما أصبح منــه

وسقى صفـوة الحيا ما أمسى

قرية لا تعد فى الأرض كانت

تمسك الأرض أن تميد وترسى

غشيت ساحل المحيط وغطت

لجة الروم من شراع وقلس

ركب الدهر خاطرى فى ثراها

فأتى ذلك الحمى بعد حدس

فتجلت لى القصور ومن في

ـها من العز فى منازل قعس[1]

ماضفت قط فى الملوك على نذل

.. المعالى ولا تردت بنجس

وكأنى بلغت للعـلم بيتاً

فيه مال العقول من كل درس

---

(١) القعس : العز الثابت .

قدساً فى البلاد شرقاً وغرباً

حجة القوم من فقية وقس

وعلى الجمعة الجلالة والنا

صرنور الخميس[1] تحت الدرفس[2]

ينزل التاج عن مفارق دون

ويحلّى به جبين البرنس

سنة من كرى وطيف أمان

وصحا القلب من ضلال وهجس

وإذا الدار ما بها من أنيس

وإذا القوم ما لهم من مُحسّ !

الخ ...

***

ذهبنا بعد ذلك إلى أشبيلية وهى أكبر مدن الأندلس فى الوقت الحاضر . والمدينة جميلة ذات صبغة شرقية محضة فلكل منزل تقريباً فسقية تتوسط الحوش لترطيب الجو كما هو الحال فى بعض منازل دمشق . كذلك الشوارع

---

(١) الخميس : الجيش . (٢) الدرفس : العلم الكبير .

داخل المـدينة مغطاة بالخيم كى تحـول دون الشمس فى أيام القيظ . .

ولأشبيليـة متنزه جميل على ضفـاف نهرها الشهير « الوادى الـكبير » يقصده الأشبيليون فى الأصيل للتمتع بالنسـيم العليل الذى ينبعث من النهر . .

أما من جهة الآثار ففيها « القصر » الذى شيد فى العهد العربى ، ولـكن زيد فى بنائه فى عهد الملوك الـكاثوليـك ، لهذا تجد طراز القصر خليطاً من الطرازين الشرقى والغوطى ولـكن هذا الخلط لا يؤذى الذوق ، بل هو على العكس رائع . . وللقصر حدائق غناء لا يمل المرء التجول فيها . .

و إذا أردت أن تشهد مصارعة الثيران على أصولها ففى أشبيلية ، إذ هناك يذهب سيداتها إليهـا وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الألوان الزاهية . .

والأسبان جد فخورين بأشبيلية هذه ، كما أن هنـاك مثلا يقول : إن من لم يشهد أشبيلية لم يشهد العجب !

وأشبيلية هى التى أوحت إلى أبى رواية « أمـــيرة الأندلس » ، ففى « قصرها » المذكور التقى أبى بالأطياف

المحبوبة لروايته : المعتمد بن عباد . . الذى اشتهر شاعراً أكثر مما أشتهر ملكا . الرميكية زوجته ، وهى شاعرة مثله ، العبادية أمه . . التى حنكتها حياة القصور ، بثينة بنته وهى الأميرة العصرية المثلى . . الخ . .

* * *

حللنا بعد ذلك بغرناطة . . التى كانت آخر معقل للمسلمين فى أسبانيا . . وبها أجمل ما بقى من القصور العربية قاطبة فى تلك الديار الا وهو : الحمراء ، والحمراء سميت هكذا نسبة إلى ابن الأحمر مؤسسها ومؤسس دولة بنى الأحمر فى غرناطة ونواحيها ، وهى مبنية على آكام يصعد إليها فى نحو ربع ساعة بالقدم من حاضرة غرناطة . وهذه الآكام يشرف عليها الجبل الشهير المعروف « بالشير انقادا » . . الذى لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءاً ، مما جعل أبى يقول :

جلل الثلج دونها رأس (شيرى)

فبدا منه فى عصائب برس

سرمد شيبه ، ولم أر شيبـــاً

قبـله يرجىء البقاء وينسى

أما القصر نفسه ، فآية فى الروعة والجمال بحجره الرحبة الواسعة ، ونقوشه الدقيقة ، وفسيفسائه الملون . . وأجمل هذه الحجر ، الحجرة التى يقال لها مجلس السفراء ، وفيها كان ملوك بنى الأحمر يقابلون رسل ملوك الإفرنج وسفراءهم ، والحجرة المذكورة مفروشة بالرخام ومزينة الجدران بأحسن النقوش وأبدع الخطوط . . ومن نوافذها يطل الناظر على حى البيازين . . وكان من أعمر الأحياء فى عهد العرب . . أما الآن فيقطنه « الغجر » . . وهنالك الحجرة التى يقال لها مجلس السباع . . وذلك لأن فى وسطها حوضاً تحيط به وتوليه ظهورها سبعة من التماثيل كلها على صورة الأسد وهى تمج الماء صافياً عذباً . . وهى التى وصفها أبى بقوله :

مرمر قامت الأسود عليه

كلّة الظفر ليّنات المجسّ

تنثر الماء فى الحياض جمانا

يتنزّى على ترائب مُلْس

وكان بالحمراء مسجدان : أحدهما كبير ، والآخر أشبه

بالزاوية . فأما الكبير فقد حوله ملوك الإفرنج إلى كنيسة فتغيرت معالمه إلا صخره وحجره . والآخر وهو أصغرهما لا يزال على حالته ، وهو بديع الشكل يكاد يحبب الصلاة إلى تاركها ، وهو حجرة واحدة قليلة المساحة عليها قبة من أضخم القباب وأفخمها وأحسنها زينة وأزينها حلية ..

ولما كانت تحيط بالحمراء غابة مترامية ذات رياض ناضرة وخمائل زاهرة ، فقد رأى الأسبان أن ينشئوا فيها فنادق للسياح ، وقد أقمنا فى أحد هذه الفنادق . . وكان يدعى فندق وشنطون أرڤنج وهو اسم كاتب أمريكى شهير أحب الحمراء فكتب عنها قصصا كثيرة . .

وقد تعرفنا فى هذا الفندق بضابط أسبانى ، وأسرته على كثير من الدعة والظرف ، ولما كان هذا الضابط شديد السمرة فقد قال له أبى إن لونه عربى ، فأجاب هذا فخوراً أنه فى الواقع من أصل عربى ، وأنه على حسب شجرة أسرته — يجرى الدم العربى فى عروقه ، غير أنه ليس دماً عربياً عادياً بل هو دم الأمويين الأمجاد !

وتوجد فى بهو الفندق المذكور صورة كبيرة بالزيت

تمثل الملك أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة وهو يسلم فى خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك . . ويقال إن عبد الله هذا قد أجهش بالبكاء وهو يغادر أرض الأندلس ، فقالت له أمه عائشة التى كانت فى صحبته : إبك الآن بكاء النساء ، الملك الذى لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال .

ويطلق الأسبان على الربوة التى سقطت عليها دموع أبى عبد الله : زفرة العربى . .

وقد أشار أبى فى سينيته إلى أبى عبد الله هـــذا إذ قال :

ومفاتيحها مقاليـد ملك
باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم فى كتائب صمّ
عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشاً وكانت
تحت آبائهم هى العرش أمس

ربّ بانٍ لهادم وجموع
لمشتٍّ ومحسن لمخسّ

إمرة النـــاس همَّة لا تأتّى

لجبان ولا تسنى لجبس[1]

وإذا ما أصاب بنيانَ قوم

وَهْىُ خلق فإنه وهى أسَ

طالما زعم العامة فى هذه البلاد وجاراهم بعض الخاصة من الـكتاب حدوث أمور حول الحمراء فى زمن العرب ، وبعضها أشبه بالخرافات منها بالحقائق ونحن نورد لك شيئاً منها على سبيل الفكاهة ، فمن ذلك أنه كان منذ أزمان بغرناطة ملك من ملوك العرب يسمى ابن حبوز ، وكان شجاعاً ، ولـكن لم يلبث أن ترك حياة المعارك والوقائع وآثر المعيشة فى ظل الدعة والسكون ، وكان كثير الأعداء لأنه أطال يده بالقتل فى أيام شبابه ، فكان خوف الملك من جهتهم مستديماً وقلقه مستمراً ، ولذلك وضع الجنود والحراس فى كل ناحية من غرناطة . ففى ذات يوم وصل غرناطة شيخ من علماء العرب يقال له إبراهيم بن أبى أخيب من سلالة الصحابة كان جده صحابياً فى جملة الذين فتحوا مصر مع عمرو بن

(١) الجبس : الجبان .

العاص . وهذا الشيخ قد اخترع دواء من تناوله عاش مئتى سنة ، وكان هو — فى زعم الرواية — قد بلغ هذ العمر . فلما ورد غرناطة احتفل الملك به وبالغ فى الرفع من قيمته ، وأراد أن ينزله بجانب من قصره ، فامتنع واكتفى ببيت أرضى بظاهر البلد ، فأعطاه الملك إياه ، وحمل إليـه جميع مايحتاج إليه . ففى بعض اجتماعاته بالملك شكى إليه هذا كثرة الأعداء والتعب بالاحتراس منهم . فقال الشيخ : إعلم أيها الملك أنى وجدت فى مدينة برزة بمصر تمثالى خروف وديك مصنوعين من النحاس ومنصوبين على وادى النيل ، فعرفت من عجيب شأن الأول أنه يتحرك ويميل نحو الناحية التى يأتى الخطر منها ، فإذا فعل ذلك احترس الحكام واستعدوا للدفاع . وأما الديك النحاس فيصيح فى مثل تلك الحالة « الله أكبر » فيعرفون كذلك أن هناك خطراً مهدداً . فقال الملك : ومن لى بهذين كليهما أو أحدهما ، فلو ظفرت بذلك لبت الليالى الباقية من عمرى ناعم البال هادىء المضجع ، فعاد العالم فقال :

لما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر وصارت

للعرب وكنت بها، اختلطت بأهلها لتعلم علومهم والاطلاع على أسرارهم ، فعلمت من عالم من علمائهم أن فى الأهرام كتاباً من كتب أسرار الحكمة لواضعه سلومون ، ولكن دون الوصول إليه خرط القتاد ، فاستصحبت حينئذ بعض جنود المسلمين ودخلت الهرم بعد ملاقاة صعوبات جمة وجعلت أبحث عن الكتاب المذكور حتى وجدته . فقال الملك : أنت والله يا ابن أبى أخيب العالم جد العالم ، ولكن عاذا ينفعنى كتابك عما أنا فيه ؟

قال : سترى أيها الملك ، ثم شرع فى بناء برج عال تلقاء البيازين ونصب عليه تمثال رجل عربى من نحاس ، وإذا يده تتوجه من نفسها إلى كل ناحية يقبل منها العدو . ولما وقعت إشارته مرة إلى الشيرا جبل الثلج المشهور ، أراد الملك أن يرسل جماعة من الجند إلى حيث أشار التمثال بيده ليطاردوا العدو إن كان هناك عدو كما زعم التمثال ، فقال العالم : أرح الجند من هذا أيها الملك فما بك إلى قتال العدو من حاجة فإنه مقتول من نفسه ، وإن أردت أن تتثبت من ذلك فاصعد معى إلى البرج ، فصعدا معاً ووقفا على مائدة

هناك من الحش ، ثم قال له العالم : خذ هذه العصا واضرب بها على هذه المائدة فإنك ترى العجب العجاب . فأخذ الملك العصا وضرب بها على المائدة فتمثل له فى صفحتها الأعداء من الإفرنج وهم يتساقطون قتلى بلا قتال . وبعد ذلك بيسير نمى إلى الملك أن جيشاً عظيما من الإفرنج قد انهزم وتبدد على وجـــه غامض غريب ، ففرح الملك بذلك فرحا عظيما وقال الآن يطيب لى النوم . ثم قال للعالم : أيها الرجل اقترح ، فلن تجدنى مقصراً فى مكافأتك .

لا أسألك أيها الملك إلا أن تأمر بحجرتى فتوسع وتفرش بالطنافس التركية .

قال الملك هذا مطلب هين ، فسل أكثر منه وأعظم ؛ فإنك تجاب إلى جميع ما تطلب .

قال ليأمر لى الملك ببضع قيان ، وليأمر باختيارهن من ذوات الحسن والجمال ؛ فإنى — كما يعلم الملك — فيلسوف فرؤية الجمال تزيدنى نشاطاً وتملأ صدرى سروراً وتخفف على وطأة السن حتى تكاد تعيد شيبى شبابا . وما زال الفيلسوف فى ضيافة الملك بأنعم بال وأحسن حال لا ينتهى

من علومه ومباحثاته . والملك فى هذه الأثناء يحارب أعداءه ويكافحهم بمساعدة التمثال وبدون اقتحام، إلى أن نظر الملك ذات يوم إلى التمثال وقد تحركت يده متجهة إلى جبل « جوادا كى » فنظر فى المائدة فلم ير شيئاً فأدهشه ذلك وبعث بالجند إلى تلك الناحية ليوافوه بالخبر فعادوا إليه يسوقون فتاة بارعة الجمال قد وجدوها هناك ولم يجدوا شيئاً سواها . فسألها الملك : من الصبية أنت وماذا أتى بك إلى تلك الجهة ؟

فقالت الفتاة : أنا بنت أمير من أمراء النصارى انهزم عنى جند أبى وتركونى وحيدة شريدة حتى وقعت فى يد الأسر ، وقد كان انهزام قومى بلا حرب ولا قتال ولكن بعجب من القضاء والقدر . فقال العالم وكان حاضراً : احذرها أيها الملك ولا تكن لك فتانة ؛ فإن بنات الإفرنج جالبات الشرور مخربات لعوامر الدور .

قال الملك : إنك يا ابن أبى أخيب رجل علم وفلسفة ولست رجل حسان وغوان ، فدع لى أمرها أنا أعلم به منك

فقال العالم : أنت تعلم أيها الملك أنى خدمتك باختراعاتى السحرية وعلومى السرية أعظم خدمة تؤدى إلى الملوك

أمثالك . فإن أردت أن تكافئنى على ذلك بأن تهب لى هذه الجارية قمت بحق ووفيتنى أجرى، فقال الملك: لقد أهديت إليك من القيان البوارع والحسان الروائع ما أحسبه يغنيك عن هذه الغانية . فأجابه العالم : صدقت أيها الملك ، وشكر إحسانك لا يؤدى ، ولكنى أتحكم فى مكارمك فلا أبتغى أن تنعم على إلا بهذه الفتاة. فغضب الملك وقال: إذن فاذهب ملعوناً من الرحمن مصحوباً بالشيطان ، فإنى لا أنزل لك عن هذه الحسناء التى أنا بها أحق وهى لى أليق . فلم يزل به العالم متوسلا مستعطفاً فلم تقبل منه ضراعة ولا لان إليه قلب الملك حتى يئس منه فخرج قاصداً حجرته منكسر القلب .

فلما كان فى بعض الأيام عصفت الفتنة فى غرناطة وهبت بها الثورة وخرج الناس على الملك وحظيته الإفرنجية، وكانت قد أضرت بيت المال واستنفدت ما فيه بنفقاتها الواسعة ومقترحاتها الفادحة ، وهجم الثوار على القصر ودخلوه شاهرى السلاح . وكان التمثال قد بطل سحره وانقضى أمره فلم تكن يده تتحرك ولا تشير دالة على مفاجأة الحادث

الخطير إلا أن الملك نهض فى وجه الثوار وقاومهم بحرسه ورجال قصره فهزمهم، ثم سار إلى ابن أبى أخيب فى منزله وقال له : ما العمل أيها العالم وما نصيحتك لنا ؟ .

فقال : أن تدع هذه الكافرة .

قال الملك : أما هذا فليس إليه سبيل فانظر غيره .

قال : إذن تفقدها وتفقد الملك معها .

فقال الملك : أنا لا أرغب إلا فى عيشة هادئة .

فقال العالم : أسمعت بجنات إرم التى تتغنى العرب بوصفها ؟

فقال الملك : كيف لا وهى منعوتة فى «سورة الفجر»

فقال العالم : كنت فى زمن الشباب أرعى على جمال لأبى ، وكنت فى قومى فتركونى وفقدت أثرهم ، فما زلت أسير فى طلبهم حتى اعترانى كلل ، فعمدت فى الطريق إلى نخلة عند بئر غائرة الماء فاضطجعت فى ظلها وأخذتنى السنة ثم انتبهت فإذا أنا أمام مدينة فدخلتها وإذا هى نخمة الشوارع كثيرة الأسواق ، ولكن السكون سائد عليها فجعلت أتنقل فيها حتى انتهيت إلى قصر شاهق ذى حديقة غناء ،

ثم جاوزت المدينة إلى ضواحيها فصادفت هناك شيخاً درويشاً، فسألته عن البلد وقلت أين أنا ؟ فقال . أنت بجنات إرم . ثم مرت الشهور وانقضت الأعوام وظفرت فى مصر بكتاب أسرار الحكمة لسلومون ، فرجعت إلى ذلك المكان ونزلت عليه بذلك القصر قصر شداد بن عاد وأقمت أياماً بتلك الجنة .

فقال له الملك : ابن لى قصراً مثله ولك ما تسأل .

قال العالم : بل تعطينى أول دابة تدخل القصر فآخذها وما عليها من أحمال ، فقبل الملك ذلك . وحينئذ شرع العالم فى بناء القصر حتى أتمه ، ثم أتى إلى الملك فقال له : هأنذا أيها الملك قد فرغت من البناء .

قال : وأنا سأنزله غداً إن شاء الله .

فلما كان الغد توجه الملك والعالم والفتاة الإفرنجية قاصدين القصر على دوابهم ، فلما بلغوا مدخله أشار الشيخ إلى باب عليه قفل وقال هذا أيها الملك هو مفتاح الجنة فأنجز الآن ماوعدتنى وادفع إلى الدابة وما حملت وكانت الفتاة قد سبقت الجميع على مركبها السريع ، فضحك الملك . فقال

العالم . مايضحكك أيها الملك؟ ألست وعدتنى بأنك إن بنيت لك القصر على ذلك المثال أعطيتنى أول دابة تدخله بما عليها من أحمال وأثقال ؟ فقال الملك . مه يا ابن الصحراء أتخدع سيدك ؟ .

قال العالم : وأنت أيها الملك أعلمك هـذا الصغير القليل ترجو أن تحكم فى نجي سـلومون وحامل أسرار حكمته تمتع مابدا لك بهذا القصر ثم جذب بعنان دابتـه وضرب به الأرض فانشقت وتوارى هو والحسناء . فأمر الملك ألف عامل أن يبحثوا فى الأرض حيث احتجب الشيخ والجارية فذهب سعيه سدى ولم يقفوا له على أثر . وفى هذه الأثناء تحركت يد التمثال مشيرة إلى الموضع الذى تولى العالم إليه واحتجب فيه ، وبعد ذلك بأيام استأذن رجل على الملك فأذن له ، فأخـبره أنه عثر على ثقب فى الأرض ونظر منه فرأى ذلك العالم مستلقياً على أريكة يتلذذ بنغمات الطنبور الشجية التى تحركها أنامل الأميرة المختفية . فسار الملك إلى موضع الثقب فوجده منسداً فعالج فتحه فاستعصى عليه ، لأن تلك اليد الساحرة كانت قادرة على إحكام سده .

وأما قمة الجبل التى اختيرت لتشييد القصر وإنشاء البستان فعادت قاعا صفصافاً . وتناولت ألسنة الناس هذا الحديث، فمنهم من يقول جنون الملوك ، ومنهم من يقول فردوس المجانين . ولما شاع الأمر وذاع الخبر وعلم الأعداء أن التمثال لم يبق على ما كان عليه من حراسة الملك وحمايته فى الشدائد هجموا على مملكته من كل جانب حتى مات بين حروب لم تهدأ جمرتها فى الخارج ولا فى الداخل . وعلى ذلك الموضع الذى احتجب فيه الساحر والجارية بنيت الحمراء بعد مرور أزمان طويلة ، فيزعمون أنهما لايزالان فى قيد الحياة باقيين تحت الباب المعروف بباب القضاء ، يزعمون أن الحراس كثيراً ما يسمعون حتى الآن غناء شجياً بالليل خارجاً من ذلك الموضع ، وأن الأميرة لايزال فى أسر ابن أبى أخيب وستظل كذلك حتى تقوم الساعة مالم تعد تلك اليد الساحرة القادرة فترفع السحر عن تلك الناحية .

ومن خرافاتهم أيضاً أنه كان فى قديم الزمان شاب أسبانى يدعى لوبه سنشه ،وكانت إقامته بالحمراء ، فكان يتعهد بساتينها الناضرة ويتنقل فيها غرداً مسروراً ، وكانت له

زوجة وبنية بلغت الثانية عشرة من سنها اسمها سانشيكا.

فاتفق فى بعض الأعياد أن أتى إلى سنشه أصحابه وأخذوا فى اللعب والغناء ، فعثرت ابنة البستانى على تميمة على هيئة اليد مقبوضة الأصابع فجاءت بها الجماعة وأرتهم إياها . فقال لها أحدهم اطرحيها ، وقال آخر إن هذا من صنع العرب فلعلها من قبيل السحر ، وقال ثالث بل تعرضينها على بعض الصاغة لعله يبتاعها منك وبينماهم كذلك إذ حضر رجل كان قد قضى زمناً طويلا فى إفريقيا ، فتناول التميمة وبعد أن قلبها وأمعن النظر فيها قال : لقد رأيت نظائر لهذه اليد فى بربرية من قرى إفريقية وهى تنفع للوقاية من إصابة العين ، ثم التفت إلى والد الصبية وقال أهنئك أيها العزيز فإن ابنتك هذه سعيدة مرزوقة . وحينئذ تناولت امرأة البستانى اليد وناطتها فى عنق الفتاة فلما أبصرها القوم أقبلوا يتجاذبون أطراف القصص والأحاديث عن العرب مما سمعوه من آبائهم وأجدادهم . فقالت امرأة من الجمع متقدمة فى السن : لقد حدثت أنه يوجد على مقربة من هاهنا قصر تحت الأرض لا يزال السلطان أبو عبد الله يسكنه بأهله

وحاشيته ، وكذلك توجد بالقرب من مكاننا هذا بئر لوأعطيت الدنيا ومافيها بدل وقفة أقفها عليها ونظرة أرسلها فيها لما قبلت يقولون إن راعياً سقطت له معزى فيها فنزل فى طلبها واستنقاذها نخرج منها مصفر الوجه وحكى الأهوال التى شهدها ووصف مالقي من خيالات العرب التى كانت تعبث به وتحرجه وهو فى جوف البئر إلى أن وفق للصعود . ثم اختفى الراعى بعد ذلك فلم تقع عليه عين ولم يعرف له خبر . إلى أن عثر جيرانه ذات يوم على غنمه وهى همل ترعى حوالى البئر ووجدوا عصاه وقبعته هناك .

وكانت ابنة البستانى فى تلك الأثناء تصغى إلى الكلام باهتمام ، حتى اشتدت رغبتها فى رؤية تلك البئر ، فما لبثت أن تركت الجمع وتوجهت إليها . فلما بلغتها وقفت ثم نظرت فيها ثلاثاً وفى المرة الرابعة اعتراها خوف شديد ، ثم ألقت حجراً فى البئر فسمع له صوت قوى ، وعلى أثره تصاعد من البئر غناء وأصوات موسيقية وجلبة جند . فانسحبت سانشيكا من المكان مذعورة ورجعت إلى حيث كان أهلها فلم تجد منهم أحداً ، نخرجت حينئذ قاصدة غرناطة ، فلما صارت

بعقربة من الحمراء شعرت بتعب فجلست على أريكة من الخشب،
حتى إذا انتصف الليل لم يرعها إلا جيش عربى عظيم
أبصرته وهو ينحدر من الجبال نحو الحمراء ، منهم حملة
الرماح ومنهم متقلدو السيوف ودروعهم تلمع فى ضوء
القمر وتتقدمهم امرأة حسناء كاسفة البال ووراءها السلطان
أبو عبد الله وهو جميل الصورة ظريف الثياب ، فنظرت
إليهم الفتاة من غير خوف ولا اضطراب حتى عبروا
وانتهوا إلى باب العدل من قصر الحمراء فتبعتهم حتى بلغوه ،
وهناك كان الحرسى نائماً فلم يوقظه مرور هذا الجيش
الكثيف بالقرب منه ، وظلت الفتاة تتبعهم لو لم تقف
دهشة إذ وقع بصرها على حفرة فى الأرض مفتوحة فبدا
لها أن تنزل فيها ، فلما نزلت إذا مجلس مضاء بمصابيح من
الفضة والبلور وفى وسطه رجل متقدم السن وبجانبه امرأة
حسناء تعزف بالعود ، فتذكرت حينئذ الفتاة قصة العالم
العربي الذى سمعت عنه أنه لا يزال مختبئاً فى باطن الأرض
مع امرأة إفرنجية ، فرفعت المرأة الحسناء نظرها إلى الفتاة
وقالت : أهذا اليوم عيد القديس خوان ؟

فقالت نعم .

قالت إذن السحر لا يؤثر ، اقتربى منى أيتها الفتاة وفكى عنى هذا الحديد ، فإني أرانى مطلقة هذه الليلة من السحر . ثم خرجت الفتاة مع تلك المرأة إلى ميدان الأخيب الذى كان الجيش العربى معسكراً به ، ثم سارتا إلى داخل القصر حيث المجالس مفروشة بأفخر الأثاث ، وإذا مطابخ الحمراء المتخربة منذ زمن طويل عامرة عاملة ، ومجلس السباع غاص بالحرس العربى ، ومجلس العدل متحل بالسلطان أبى عبد الله وبأهل بيته وخواص حاشيته . ومع كثرة الجمع لم يكن يسمع إلا خرير الماء وهو يتساقط من أفواه السباع فلما وصلتا إلى باب قومارس رأتا على كلا جانبيه جنية من المرمر فأومأت المرأة إلى الفتاة أن تدنو منها فدنت ، فقالت لها : ها هنا سر عظيم سأطلعك عليه اعترافا لثباتك وشجاعتك ... اعلمى أن هذين التمثالين هما حارسان لكنز خلفه بعض ملوك العرب ، فاطلبي من والدك أن يحفر حيث هما شاخصان ولا يمكن أحداً غيرك استخراجه ، واطلبي إليه أيضاً أن يقيم صلاة لأتخلص من السحر الذى أنا فيه ،

وأعطتها تاجاً من الذهب والزمرد لتتذكرها به ، ثم تركتها واختفت فى الظلام . وأما الفتاة فجعلت تتمشى فى جوانب ذلك القصر الفخم فلا تجد إلا خلاء إلى أن طلع الصبح ، فقصدت الغرفة التى يقيم بها أهلها فوجدتهم هناك . فلما استيقظ البستانى حدثته الفتاة بما رأته فى ليلتها ، فقال لها : إنه حلم من الأحلام فأرته حينئذ التاج الذهبى فلم يسعه إلا تصديق روايتها وأشار عليها أن تكتم الأمر . ثم توجه البستانى إلى حيث التمثالان فلحظ أن نظرهما متجه إلى ناحية لا يحيد عنها ، فوضع علامة على ذلك المكان وانصرف وظل البستانى نهاره كله مشغولا بأمر الكنز محاذراً أن يعثر عليه أحد غيره فلما جن الليل وسكنت الحمراء سار البستانى ومعه ابنته إلى جهة التمثالين ، فلما دنوا منهما قال البستانى مخاطباً لهما :

أيتها السيدتان الكريمتان بإذنكما أريد أن أريحكما من أمانة تحملانها بضعة أجيال ، ثم شرع يعالج المكان الذى ترك عليه العلامة بالأمس فانفتحت حفرة غير صغيرة وإذا فيها جرتان عظيمتان من الصينى ، فأراد أن يزحزحهما

فاستمصتا عليه ، فدنت ابنته ولمستهما بيدها فتحركتا طوع يدها فأخرجهما البستانى فما كان أعظم دهشه وفرحه حين رآهما مملوءتين ذهباً ، ثم حملهما فى خفاء إلى غرفته ، وحينئذ وقع فى حيرة من أمره إذ رأى أنه إذا انتفع بذلك الذهب وتمتع بالنعمة التى وصلت إليه لا يلبث أن يثير ظنون الناس به ، وخطر اللصوص على باله لأول مرة ، وخشى أن تهتدى أيديهم إلى موضع الكنز ، فصار نومه غير هادىء ، حتى خيل لأصدقائه أن شدة همه ناشئة عن شدة فقره ، ولكن منهم من لم تخف عليه الحال ، فعرف أن بلاء الرجل من المال

وكان القسيس الذى تعترف له امرأة البستانى يسمى « فارى سيمون » وكان رجلا يعتقد الجميع فيه الطيبة والخير فذكر له الناس أمر البستانى ووصفوا له حادث غناه ، واتفق أن حضرت ذات مرة امرأة البستانى إلى كنيسته فقال لها : ألا تعلمين أن زوجك قد ارتكب جريمة ضد الحكومة والكنيسة ، لأن الكنز الذى وجده كان دفيناً فى أرض للملك ، ولأنه من متروكات الكفار أخذوه من الشيطان ، وعلى كل حال فلا بد من تلافى الأمر فأتينى الآن

بالاكليل ، فلما جاءت به قال لها إنه سيضعه فى الكنيسة قربانا للقديس « فرانسيسكو » فما كان أشد فرح المرأة بذلك إذ أيقنت برضا السماء عنها،فلما رجعت لمنزلها وحدثت زوجها بالخبر قال لها : ما أشد حمقك يا ثرثارة ! فقالت له :

أكان فى وسعى أن أكتم أبى ومرشدى الحقيقة !! قال : لا ! بل كان ينبغي أن تقرى له بخطيئاتك فقط . ولما كان الغد خرج البستانى من منزله ، فحضر القسيس وقال للمرأة : اعلمى يا ابنتى العزيزة أن القديس قد تقبل دعائى وقال لى كيف تريد أن تتمتع بالكنز المكتشف فى حين أن كنيستى على هذه الحالة من الفقر ، اذهب وخذ مقداراً من الكنز العربى باسمى واصنع لى به مصباحين كبيرين ، فلم يسع امرأة البستانى إلا أن تذهب إلى حيث الكنز وتملأ صرة ثم ترجع بها وتناولها القسيس ، فأخذها بعد أن بارك المرأة وانصرف .

فلما عاد البستانى إلى غرفته وعلم بما وقع استولى عليه الغضب،ولكن امرأته بالغت فى تهدئته قائلة له : إنه لا يزال فى قبضتنا القسط الأوفر من الكنز .ولكنه لسوء الحظ كان

القسيس يحضر كل يوم ويطلب شيئاً من المال تارة باسم القديس « دومنجو » ومرة باسم القديس « أندرواز » وحيناً باسم القديس « سان تياجو » حتى لم يجد البستانى مع ذلك بداً من الجلاء عن البلد ، فاشترى بغــــلا جيداً وربطه فى نفق بمكان معروف بالبرج ذى الأراضى السبع وكان يقال ان هذا المكان يخرج منه جواد اسمه « الفلوده » لا رأس له فيجول فى طرقات غرناطة ووراءه طائفــة من كلاب الشياطين . ولــكن البستاني كان يرى أن هـذا حديث خرافة فلم يبال به بل بادر عند طلوع النهار إلى نقل أسرته وواعدها أن يلتقوا بقرية من قرى « الفيجبة » .

فلما جن الليل نقل ماله إلى النفق ثم حمله البغل ونزل به من « الالامده » المظللة وكان قد احتفظ بسره ولم يكاشف أحداً بعزمه، فكان من العجب أن القسيس اطلع على خطته ولما أيقن أن المال سيحتجب عنـه إلى الأبد خرج عنـد منتصف الليـل من الـكنيسة وتوجه إلى باب العـدل فأقام هناك مختبئاً بين الأشجار والأزهار ، فلم يكن إلا هنيهة حتى سمع صلصلة الحديد ، وبالرغم من تكاثف

الظلام لمح شبح جواد ، فتهيأ للهجوم ثم هجم على الجواد فوضع يده على كفله وقال : الآن نرى أينا الفائز وما أتم هذه العبارة حتى عدا به الجواد عدواً شديداً ، وتعسر على القسيس النزول عنه وأصيب بجراحات شديدة فى رأسه من الأشجار والتفت وراءه فرأى الكلاب تتبعه فعلم حينئذ أن ذلك الجواد هو « الفلوده » ومضى الجواد يطوف به فى جميع أنحاء غرناطة ثم عاد به إلى البرج حيث قذف به إلى الأرض ثم توارى فى الظلام . فلما كان الفجر مر به عامل فحمله إلى منزله ، وسئل عما أصابه فقال إن لصوصاً ضربوه وسرقوه ، وبعد أيام من ذلك فقد الإكليل وبحث عن ذلك الكيس فوجد مافيه قد انقلب ترابا فحزن لذلك حزناً شديداً .

ولقد اتفق بعد ذلك ببضعة أعوام أن مركبة يجرها سبعة جياد فى « مالقة » صدمت أحد معارف البستانى . فما كان أعظم دهشة الرجل إذ رأى أن صاحب المركبة الفخمة هو صاحبه البستانى ، وكان ذاهباً فى تلك الساعة ليحتفل بزواج ابنته « سانشيكا » بأحد كبراء المملكة ، وكانت معه

فى المركبة امرأته وابنته وخطيبها. فلما وقعت عين البستانى عليه سر بلقائه وأخـذه معه ، فلبث فى ضيافته أياما عدة ، ثم استأذنه فى الانصراف فزوده كيساً من الذهب على أنه هدية له ولمن لهما بغرناطة من الأصدقاء ، وكان البستانى كلما سئل عن مصدر غناه يقول ميراث أخ له مات بأمريكا عن ثروة واسعة، ولـكن حساده بغرناطة لاينسبون ثروته إلا للـكنز .

***

ومما يروى فى هذا الباب أيضاً أن حرسياً سمع وهو بمجلس السباع حركة أقدام تتنقل فى مجلس بنى سراج ، فذهب إلى حيث الصوت وإذا أربعة من أشراف العرب تدل هيأتهم على المجد والعظمة . فلما أبصروه أومأوا إليه فولى منهم فراراً ، ثم لم يعد قط إلى الحمراء .

ويحكى أيضاً أن بعض أقارب ذلك الحرسى كان منوطاً به حراسة الحمراء ، فلبث بها سنة ثم تركها وذهب إلى مالقه حيث اشترى دياراً وضياعا ، فكان الشائع على الألسنة أن أولئك الأشراف الأربعة أعطوا الرجل مالا جزيلا وقد

سمى ذلك المجلس بمجلس بنى سراج لأن نبلاء هذه الأسرة قتلوا به غيلة .

ويزعمون أيضاً أن أهالى مراكش اليوم يعتقدون أنه لابد من مجىء يوم يصلى فيه المسلمون بمسجد قرطبة ، وأن ملكا من أمراء العرب سيسكن الحمراء، وهم يسألون الله ليل نهار أن يعيد غرناطة والأندلس إلى سلطان العرب .

***

نسيت أن أذكر قبل أن أختم هـذا الفصل الخاص بمقامنا فى أسـبانيا ، أن سمو الخديوى قد أرسل إلى أبى فى أثناء إقامتنا هناك ، بما يفيد أنه إذا رغب أبى فى اللحاق بسموه فى فينا ، فسموه مستعد أن يخطر السفارة النمساوية فى مدريد كى تيسر لأبى السفر فى إحدى الغواصـــات الألمانية التى كانت تغدو وتروح فى موانىء أسبانيا لتأخذ ما يلزمها من وقود وزاد . . وهذا على الرغم من وجود الأسطول البريطانى (سيد البحار !) الذى كان يحاول عبثاً أن يحول دون ذلك . . ولـكن أبى اعتذر، لأنه أولا لا يميل البتة إلى ركوب الغواصات . . ولأنه ثانياً لا يستطيع

أن يتركنا وحدنا فى أسبانيا ، تحت رحمة انتقام السلطات العسكرية فى مصر ، إذا علمت ، بهذا الأمر . .

***

عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر فى عام ١٩١٩ ، سافرنا إلى جنوا بحراً ، ومن ثم ذهبنا إلى البندقية فى السكة الحديدية إذ كانت أول سفينة تغادر أوروبا إلى مصر تقوم من هناك إذ ذاك . . وأبى كان متعجلا فى السفر إلى مصر ، إذ كان حنينه شديداً إليها . . ألم يقل على أثر هذه العودة .

وياوطنى لقيتــك بعد يأس
كأنى قد لقيت بك الشبابا

كذلك كان جد مشوق إلى شمسها العظيمة التى كان كلما تذكرها عذر المصريين القدماء بعض العذر . . على اتخاذهم منها آلهة ! ولما بلغنا الإسكندرية كان فى استقبالنا هناك الأقارب والأصدقاء الأخصاء فقط ، وقد صعدوا جميعاً إلى ظهر الباخرة ، وكان أحدهم معمما يلبس الجبة والقفطان، فلما رأته بنت أختى ولم تكن قد رأت هذا اللباس من قبل، إذ نشأت وترعرت فى أسبانيا ، قالت لأبى فى دهشة

وتعجب : جدى ، جدى أنظر إلى الرجل الذى يرتدى فستانا ! .

أما فى القاهرة ، فقد كان الاستقبال شاملا رائعا ، إذ تجمع فى فناء المحطة آلاف الطلبة لتحية أبى ، ثم أخذوا يهتفون بحياته فى حماس عظيم ، ثم حملوه على الأعناق حتى السيارة ، وقد أثرت جداً فى أبى هذه الحفاوة من شباب وطنه إلى حد أن كانت الدموع تترقرق فى عينيه طول الطريق من المحطة إلى المطرية .. وقد قال فى وصف هذا الاستقبال الرائع :

وحيّا الله فتيانا سماحا
كسوا عطفىّ من فخر ثيابا
ملائكة إذا حفوّك يوما
أحبك كل من تلقى وهابا
وإن حملتك أيديهم بحورا
بلغت على أكفهم السحابا
تلقونى بكل أغر زاه
كأن على أسرّته شهابا

ترى الإيمان مؤتلقاً عليه

ونور العلم والكرم اللبابا

وتلمح من وضاءة صفحتيه

محيا مصر رائعة كعابا

وما أدبي لما أسدوه أهل

ولكن من أحب الشيء حابى

ومما زاد في فرح أبي أنه رأى بني وطنه قد بعثوا من جديد ؛ وأن جهاده الطويل في هذا السبيل من قبل قد تكلل أخيراً بالنجاح ، وأن شبان الحمى قد صمموا على خلع نير الأجنبي المخزى ، بل هو دهش مبهوت مما رأى . . ها هو ذا يقصى نبأ هذه المعجزة على صديقه المرحوم عثمان باشا غالب الذى كان قد مات في باريز من عهد قريب :

عثمان قم تر آية	الله أحيا الموميات
خرجت بنين من الثرى	وتحركت منه بنات
واسمع بمصر الهاتفين	بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقها	بين السكينة والثبات

والجـاعليها قبـلة   عنـد الترنم والصلاة

لاقـوا أبـوتهم على   غر المناقب والصفات

حتى الشبـاب تراهمُ   غلبوا الشيوخ على الأناة

وزنوا الرجال فكان ما   أعطوا على قدر الزنات

قل للمغالط فى الحقـا   ئق حاضر منها وآت

الفكر جاء رسوله   وأتى باحدى المعجزات

عيسى الشعور إذا مشى   رد الشعوب إلى الحياة

غير أن أبى كان جد آسف على أنه لم يستطع أن يشترك فى تلك الثورة المباركة بسبب وجوده بالمنفى إذ ذاك ها هو ذا يظهر هـذا الأسف فى قصيدة نظمها بمناسبة إحـدى ذكريات ١٣ نوفبر :

...يوم البطولة لو شهدت نهاره
لنظمت للأجيال ما لم ينظمِ
غبنت حقيقته وفات جمـالها
باع الخيـال العبقرىّ الملهم
لولا عوادى النفى أو عقباته
والنفى حال من عذاب جهنم

لجمعت ألوان الحوادث صورة

مثّلت فيها صورة المستسلم

الخ . . .

ولـكنه سجل أحداث هذه الثورة فيما بعد فى كثير من المناسبات . . فمما قال فيها :

عطف العصر على نهضتكم

ولوى الناس عليها معجبين

ثورة أقبلت السـلم بها

عجب الرائين سحر السامعين

قام رهط منـكمو فاقتحموا

كبرياء الفاتحين الظـافرين

جحدوا السيف وردوا حكمه

عزّلا إلا من الحق المبين

همـة تـكتبها مصر لهم

إن أبيتم أن تكونوا الـكاتبين

استخف الليث إجمـاعكمو

وهو ناب العجم الداهى الرزين

قـد زأرتم زأرة أقعى لهـا

وأحال اللحظ فيكم يستبين

مستعيذاً منكم بالله أن

تصبحوا الهند وتمسوا «السين[1] فين»

* * *

نفر تأوى إليهم أمـــة

ووزير يتـولى الثـــائرين

وشباب من رآهم عصبة

قال : نحل أوذيت بالمعتدين

زادهم « سعد » شباتى همـة

كالحسام العضب والرمح السنين

الخ . . .

* * *

ومما قال فيها أيضاً ، والحديث عن ذكرى ١٣ نوفمبر :

صباحك كان إقبالا وسعداً

فيا يوم الرسالة « عم صباحا »

---

(١) رجال الثورة الأرلندية .

..جلالك عن سنا الأضحى تجلى

ونورك عن هلال الفجر لاحا

هما حق وأنت ملئت حقاً

ومثلت الضحية والسماحا

بعثنا فيك هارونا وموسى

إلى فرعون فابتدأ الكفاحا

وكان أعز من روما سيوفا

وأطغى من قياصرها رماحاً

يكاد من الفتوح وما سقته

يخال وراء هيكله فتاحا

ورد المرسلون فقيل خابوا

فيالك خيبة عادت نجاحا

أثارت غاديا من غايتيه

ولامت فرقة وأست جراحا

وشدت من قوى قوم مراض

عزائمهم فردتها صحاحا

كأن بلال نودى : قم فأذّن

فرجّ شعاب مكة والبطاحا

كأن الناس فى دين جـديد

على جنباته استبقوا الصلاحا

وقد هانت حياتهموا عليهم

وكانوا بالحياة هم الشحاحا

فتسمع فى مآتمهم غنـاء

وتسمع فى ولائمهم نواحـا

الخ . . .

***

من حسن حظنا أننا وجدنا منزلنا بالمطرية سالماً لم يمس بسوء ، بعد هذه الغيبة الطويلة . . هذا إذا استثنينا شجرة كبيرة من نوع الصفصاف أمر بقطعها أحد أقاربنا بحجة أنها تؤذى جدار المنزل ، ولكن الواقع أنه فعل ذلك كى ينتفع بخشبها ؛ إذ كان الخشب وقتها نادراً وأثمانه مرتفعة جداً . .

وقد عزا أبى وقاية البيت وسلامته إلى بركة لوحة

كانت معلقة على المدخل ، مكتوب عليها : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لذلك عندما تركنا المطرية أخذنا هذه اللوحة معنا فخلينا بها مدخل منزلنا الجديد بالجيزة . .

لم ترق لنا الإقامة فى المطرية من جديد بعد عودتنا من أسبانيا ، لبعدها عن المدينة ، ولصعوبة مواصلاتها ؛ لذلك فكرنا فى الانتقال منها . . وإذا كنا قد أقمنا فيها قديما فبسبب ذلك وجود سمو الخديوى فى القبة إذ ذاك . . كما أشرت إلى هذا آنفا ؛ ولكن بعد ما تبدلت الأحوال ، لماذا نبق هناك ؟ . . أخذنا نفكر فى المكان الذى نبنى فيه كرمة ابن هانىء الجديدة ، أين يكون ؟ شرعنا نعرض الضواحى المرغوب فيها إذذاك ؛ فكرنا فى الزمالك ثم عدلنا عنها لأنها منخفضة ، مصر الجديدة ؟ هى فعلا مكان هادىء وصحى ، ولكنه بعيد على الرغم من مواصلاته الحسنة ، قصر الدوبارة ؟ هو مكان وجيه ولكنه مزدحم بالمبانى . . وأخيراً اخترنا الجيزة مع أنها كانت فى ذلك الوقت قليلة العمران ، اخترناها لقربها من المدينة من جهة ولأنها تطل على النيل المبارك من جهة أخرى . . إذ كان أبى دائما

يحب أن يكون بالقرب منه ، لذلك كانت له فيه « ذهبية » قبل الحرب أى وقت ما كنا نقطن المطرية .. كما كان يردد هذا البيت ، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين عن تحبيذ السكنى بالقرب من النيـل :

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا

على نيلها الجارى فما أنت فى مصرا

كذلك اخترنا الجيزة لقربها من الأهرام التى كان أبى مغرماً بها أيضاً ، إذ كان يحملنـا على الذهاب إليها كل يوم جمعة تقريباً .. كنا نأخذ معنا طعامنـا ثم نذهب إلى مقهى صغير منعزل أمام فندق ميناهاوس ، وكنا نختار هذا المكان المتواضع لنكون أحراراً ، إذ كنا نذهب فى عصبة بوهيمية مرحة كثيرة الصخب من أدباء وفنانين . .

كان يحضر معنا فى هذه الرحلات المرحوم حافظ بك إبراهيم الذى كانت صحبته جد مسلية ، غير أنه كان يضايقنى « بالسيجار » الذى كان يفرض علىّ تقديمه له ، كنت أشترى له سيجارين كان الواحد بعشرة قروش وكنت أظن أنه نوع جيـد ، إذ لم أكن أفهم فى أنواعه ، غير أنه كان يرفضـه

فى غضب ويطلب إلىّ شراء نوع آخر كان السيجار الواحد منه بثلاثين قرشاً ..

سألنى حافظ بك مرة ، فى أثناء هذه الرحلات ، وكنا قد فرغنا من تناول الطعام وشرعنا نتمشى فى الطريق المؤدى من الهرم الأكبر إلى أبى الهول ، قائلا : أتقول الشعر ؟ فأجبته : أجل ولكن قليلا .. فقال : إذن قل شيئاً فى الهرم أو فى أبى الهول فقلت :

أيا هرمىْ مصر سلامٌ عليكما ..

ولكنى لم أتمكن من تكملة البيت ، عندئذ فكر حافظ بك لحظة ثم قال :

سلامُ مشوق منذ خمس إليكما

وهو يقصد بالخمس ، السنوات الخمس التى قضيناها بالمنفى .. كما أنشدته بضعة أبيات كنت نظمتها فى مناسبة أخرى ، فالتفت إلى أبى وقال : أتعلم يا شوقى أن ابنك يرجى منه ؟ عليك أن تتعهده ليصير شاعراً مطبوعا .. فأجاب أبى : إنى أفضل أن يعنى هو بالنثر لا بالنظم ؛ لأن الشعر لا يتحمل الوسط ، وحسين لن يبلغ فيه القمة ..

فقال حافظ بك موجهاً إلى الخطاب : لا تطع مشورة أبيك يا حسين ، إنه يقول ذلك لأنه غيران منك . إذ يخشى أن تسبقه فى يوم من الأيام ! . فقال أبى فى مرارة : لماذا بربك تريد منه أن يكون المسكين شاعراً ؟ لماذا ؟ أليشقى مثلنا ويحرق أعصابه ؟

عرفت صدق كلام أبى بعد مرور عشر سنوات على هذا الحديث عند وفاته ، لما سألت طبيبنا النمساوى عن سبب الموت ، لأن أبى لم يكن متقدماً كثيراً فى السن إذ توفى فى الثانية والستين ، فأجابنى الطبيب بأن أبى ، وإن لم يكن مسناً كانت أعصابه مع الأسف بالية ، كانت أعصاب شيخ جاوز الثمانين .

وقد نظم أبى خلال إحدى هذه الرحلات قصيدته المشهورة :

أبا الهول طال عليك العصر

وبلغت فى الأرض أقصى العمر

وفيها أيضاً يشير إلى النهضة الوطنية المباركة التى كانت موضع فخره وإعجابه منذ عاد من الأندلس ، إذ يقول :

... فهل من يبلغ عنا الأصول

... بأن الفروع أقتدت بالسير

وأنا خطبنا حسان العلا

وسقنا لها الغالى المدخر

وأنا ركبنا غمار الأمور ...

... وأنا نزلنا إلى المؤتمر

بكل مبين شديد اللداد

... وكل أريب بعيد النظر

نطالب بالحق فى أمة

جرى دمها دونه وانتشر

ولم تفتخر بأساطيلها

ولكن بدستورها تفتخر[1]

فلم يبق غيرك من لم يخف

... ولم يبق غيرك من لم يطر

---

(١) أى أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك ولكنها تعتز بحقها الطبيعى الذى ليس إلا به كيانها :

تحرك أبا الهول هـذا الزمان

... تحرك ما فيه، حتى الحجر !

ثم ما لبث أبى أن كف عن هذه الرحلات ، وبخاصة بعد ما انتقلنا إلى الجيزة وصرنا بالقرب من الأهرام ترى من بيتنا بالعين المجردة .

***

تعلق أبى بعد ذلك بمدينة الإسكندرية ، فصار يقضى فيها وقتا طويلا صيفاً وشتاء . ولكن هذه الهواية الجديدة كلفتنا غاليا ، إذ اشترى قطعة أرض بالابراهيمية تطل على البحر ، ثم شرع يبنى عليها بيتاً صغيراً سماه « درة الغواص » ، كما أنه اشترى عزبة فى ضواحى الإسكندرية ، ثم رأى أيضاً أن يشترى سيارة أخرى استخدم لها سائقاً خاصاً تظل بالإسكندرية فى خدمته ليذهب بها فى زياراته للعزبة المذكورة

من دواعى الأسف أن أبى كان يخلط الخيال والشعر بالشئون المالية ، وهما أمران متناقضان ... مثال ذلك : أنه لما اشترى هذه العزبة ، وكانت صفقة خاسرة ، سأله أحد أصدقائه عن مدى جودة تربتها ، فأجابه : لا بد أن تصبح

أرضاً طيبة لأن ابنى حسين قد باركها ، إذ طاف حولها على ظهر حمار ، كما فعل السيد المسيح . .

وكما كان يتفاءل ، كان أيضاً يتشائم ، فكان إذا تراءى له من بعد أحد معارفه الذين اشتهروا بنحوس الطالع ، ركب سيارته من فوره وأمر السائق بالانطلاق . .

كذلك كان يتشاءم من صوت البوم ، وقد أشار إلى ذلك فى رثائه للمرحوم العلامة على بك بهجت ، وكنا يومئذ لا نزال نقيم فى ضاحية المطرية :

. . أرقت وما نسيت بنات بوم
على المطرية اندفعت بكيا
بكت وتأوهت فوهمت شراً
وقبلى داخل الوهم الذكيا
قلبت لها الحذى وكان منى
ضلالا أن قلبت لها الحذيا

رمى الغربان شيخ تنوخ قبلى
وراش من الطويل لها رويا

نجا من ناجزيه كل لحم

وغودر لحمهن به شقيا

بل كان أبي قاسياً على البوم ، فقد خصها بقطعة مستقلة ، إليكها :

(البلابل التى رباها البوم :)

أنبئت أن سليمان الزمان ومن

أصبي الطيور فناجته وناجاها

أعطى بلابله يوماً ، يؤدبها

لحرمة عنده للبــوم يرعاها

واشتاق يوماً من الأيام رؤيتها

فأقبلت وهى أعصى الطير أفواها

أصابها العيّ حتى لا اقتدار لها

بأن تبث نبي الله شكواهـا

فنال سيدها من دائها غضب

وود لو أنه بالذبح داواهـا

فجاءه الهدهد المعهود معتذراً

عنها يقول لمولاه ومولاها :

بلابل الله لم تخرس ولا ولدت

خرساً ولكن بوم الشؤم رباها

***

ولما سافرنا إلى فرنسا ، على وأنا ، لدراسة الحقوق ، رافقنا إلى هناك حيث كان يقضى جزءاً كبيراً من الصيف وبخاصة فى باريز التى كان يحبها حباً جماً ، إذ درس هو أيضاً فيها ، بل قضى تحت سمائها أحب فترة من حياته إليه . . . أى شبابه . . .

كان أبى يذهب وهو فى باريز يتروض كل يوم تقريباً فى غاب بولون ، لعله كان يبحث فيه عن أطياف ذلك العهد الغابر السعيد ، بل لعله كان يحدث هذا الغاب ويذكره بأيام الهوى والشباب ، بجولاته الغرامية فيه :

... هلا ذكرت زمان كنا .. م

... والزمان كما نريد ؟

نطوى إليك دجى الليا

لى والدجى عنا يذود

فنقــول عنــدك ما نقو . .

ل وليس غيرك من يعيد

نطق هـــوى وصبابة

وحديثها وتر وعـــــود

نسرى ونسرح فى فضـا

ئــك والرياح به هجـود

والطير أقعـدها الـكرى

والناس نامت والوجـود

فنبيت فى الإينـاس يغـ

ـبطنا به النجم الوحيــد

فى كل ركــن وقفـــة

وبكل زاوية قعـــــود

نسقى ونسقى والهـــوى

ما بين أعيننا وليـــد

فمن القـــلوب تمائم

ومن الجنــوب له مهود

والغصن يسجد فى الفضا

وحبذا منه السجود

والنجم يلحظنا يعيـ

ـن ما تحول ولا تحيد

حتى إذا دعت النوى

فتبدد الشمل النضيد

بتنا ومما بيننا

بحر ، ودون البحر بيد

ليلى بمصر وليلها

بالغرب ، وهو بها سعيد

كما كان يحب كثيراً الجلوس فى مقهى دار كور القائم بميدان السوربون بالحى اللاتينى ، فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه وهو شاب . . أى من ثلاثين عاماً . .

حدثنا أبى عن ذكرياته فى هذا المقهى ، فقال : إنه تعرف فيه بالشاعر الفرنسى الشهير فرلين الذى كان لا يكف عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعنى بمسحها ؛ إذ كان شاعراً بوهيمياً . وكان طلبة

السربون الذين يمرون بين يديه وهو على تلك الحالة ، يرفعون له قبعاتهم إجلالا له .. فى حين كان هو لا يشعر بمكانهم ؛ إذ يكون سابحاً فى عالم الشعر والخيال ..

وكان يحضر إلى هذا المقهى فى ذلك العهد أيضاً ، رجل غريب الأطوار إذ كان لا يضم إلى مجلسه من النساء إلا المحترفات اللواتى فقدن شبابهن ، وكان يبالغ فى إكرامهن فإذا شاغلته فتاة حسناء أعرض عنها ! وقد تعرف به أبى كي يعرف حكمته فى ذلك ؛ ولما سأله عن سبب تصرفاته ، قال : إنه يكرم المحترفة التى عبث بجمالها الدهر كى لا تشعر بأنها فقدت شيئاً . أما المحترفة الصبية الحسناء فالراغبون فيها كثيرون ! ولقد كان هذا الرجل من كبار أطباء باريز فى ذلك العهد ..

وقد رحب بأبى المصريون الذين كانوا إذ ذاك بباريز ، وأقاموا له الولائم ..

دعاه ذات يوم طبيب أسنان مصرى مقيم فى باريز إقامة مستديمة إذ كان يباشر فيها مهنته ، وقد قبل أبى دعوته حينما أبلغه هذا الطبيب أنه سيهيىء له أصنافا مصرية يقوم

هو بنفسه بطهيها ، وكان أبى قد اشتاق إلى هذه الأصناف ..
وقد دعانا نحن أيضاً (أى على وأنا) إلى هذه الوليمة ، كما دعا
مصريين آخرين . . وبعد ما انتهينا من تناول الطعام الذى
أثبت فيه هذا الطبيب مهارته فى الطهى ، دعانا لنشهد العيادة
وكانت مجهزة أحسن تجهيز ، ولم يكن يؤمها مع ذلك أحد
من المرضى ؛ إذ كانت مهارة هـذا الطبيب فى الطب دون
مهارته فى فن الطهى بمراحـــل . . ثم أرانا خزانة مثبتـة
فى الحائط ثم فتحها وأخرج منها فى إعجاب وزهو «رزمة»
شهادات فى الطب من .. الجبل الأسود ، ألبانيا ، الصرب !
فسأله أحد المدعوين ، وهو الأستاذ مجد الدين ناصف على
سبيل التهكم : ألا يخشى على هـذه الخزانة من اللصوص ؟
فعلق أبى : لو اقتحم إليها اللصوص لأخذوا « خازوق » !

وكان هذا الطبيب يدعى أن مهارة أساتذة جامعة باريز
دون مهارته بكثير ، حتى أنهم — كما قال — كانوا يباشرون
عملية عويصة مجتمعين ؛ فإذا بهم يضعون مباضعهم وينصرفون
فلما سئلوا قالوا : جاء فلان !

وكان أبى وهو فى باريز يقضى معظم لياليه فى مسرح

« الكوميدى فرانسيز » كى يزداد علماً فى الفن المسرحى ؛ لأن المسرح المذكور هو أرقى المسارح الكلاسيك العالمية تمثل فيه أهم الروايات المسرحية الشعرية التى ألفها كبار الشعراء الفرنسيين المعاصرين والقدماء .. كان يواظب على الذهاب إلى هناك ؛ لأنه كان يفكر إذ ذاك فى عمل مسرحيات شعرية ، وقد كان قد أخرج فعلا فى شبابه سنة ١٨٩٣ مسرحية شعرية وهى رواية على بك الكبير ، التى أعاد نظمها فى سنة ١٩٣١ إذ كانت قد عملت إذ ذاك فى سرعة .

وكان يحثنا على مطالعة جريدة « الطان » وكانت من كبريات صحف فرنسا المحافظة ، قائلا إن فائدة مطالعتها عظيمة ؛ ففيها مقالات قيمة جداً فى العلوم والآداب ، وبخاصة فى السياسة الخارجية ، ويقول أيضاً إنه استفاد منها شخصياً كثيراً إذ واظب على قراءتها طوال مدة إقامته فى فرنسا .. حين كان طالباً فيها ..

كان سمو الخديوى يقيم فى باريز إذ ذاك ، فلما علم بقدم أبى أرسل يطلبه فأشار بعض الناس على أبى بالتخلف إذ تضره هذه المقابلة .. ولكن أبى ذهب على الرغم من ذلك

إذ عد عدم ذهابه إليه قلة وفاء من جهة ، ولأنه كان توّاقاً لرؤية سموه بعد هذه الغيبة الطويلة من جهة أخرى ؛ فقد كان أبى يحبه حباً جماً ؛ يقول عن سموه إنه فضلا عن خفة روحه ، هو شعلة ذكاء ؛ وقد وصف أبى لنا هذه المقابلة فقال : إنها كانت مؤثرة ، فقد ضمه سموه إلى صدره طويلا ، وقد اغرورقت عيونهما بالدموع ..

وقابل أبى هناك بعض الزعماء الشرقيين المنفيين ومن بينهم المرحوم الأمير شكيب أرسلان الذى سرّ بلقاء أبى سروراً عظيما ، وقال وهو يعانقه : إن صداقتهما ترجع إلى أربعين عاماً .. ولكن أبى لم يسر لهذه الملاحظة لأنها تزيد فى سنه كثيراً !

وقد أخرج الأمير شكيب عام ١٩٣٦ كتاباً عن أبى سماه « شوقى أو صداقة أربعين سنة » قال فيه إنه التقى بأبى لأول مرة فى مقهى دار كور فى باريز عام ١٨٩٢ ، وكان أبى يدرس فى مونبلييه وفى أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريز كما قال إنه هو الذى أشار على أبى بتسمية ديوانه « الشوقيات » ، ثم ذكر شعراً قاله أبى فى صداقتهما إذ ذاك :

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها
سواى على أن الصحاب كثير
حرصت عليها آنة ثم آنة
كما ضن بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتم لى
وداد على كل الوداد أمير
تفرق جسمى فى البلاد وجسمه
ولم يتفرق خاطر وضمير

ودعتنا الكاتبة الفرنسية چوليت أدام المعروفة بحبها للمصريين وبعطفها على قضيتهم ، كما كانت الأم الروحية للزعيم مصطفى كامل إلى تناول الشاى بقصرها . . وهو قصر صغير أنيق فى ضواحى باريز ، وحضر هذه الحفلة كثير من كبراء الفرنسيين من أدباء وحكام ، من بينهم الكاتب الشهير كلود فارير الذى يعد من أشد أنصار المسلمين عامة ، والترك خاصة ، كما حضر القائد الكبير جورو وكان فى ذلك الوقت حاكم باريز العسكرى . . تناول الحديث خلال هذه الحفلة القضية المصرية ، فأخذت السيدة چوليت

على الرغم من شيخوختها ، تتحدث ، بل تدافع عنها فى حماسة وكأنها فتاة فى العشرين ! كانت متطرفة غير مقتنعة بالطرق المشروعة التى اتخذها زعماؤنا إذ ذاك سبيلاً لتحقيق الأمانى القومية .. ضربت مثلاً بإرلندا التى لم تنل حقها إلا بعد تضحيات هائلة وجهاد مرّ طويل .. حقاً ! إن بين الفرنسيين أناساً أحراراً بمعنى الكلمة ! إنهم خير خلف لأبطال ثورة ١٧٨٩ الذين بذلوا دماءهم فى سبيل الحرية ..

وقد قابل أبى أيضاً فى إحدى هذه الزيارات لباريز المغفور له الملك فيصل ، وقد قدمنا إليه « على » وأنا .. كان جلالته جم الأدب ، واسع الثقافة ، ودعا أبى إلى زيارته فى بغداد فوعده بتلبية دعوته ، ولكنه لم يذهب لصعوبة المواصلات فى ذلك الوقت فى البر ، أما الجو فلم يكن أبى يرتاح إلى ركوب الطائرة ، وقديماً قال فيها :

أركب الليث ولا أركبها

وأرى ليث الثرى أوفى ذماما

ثم كرّر جلالته هذه الدعوة بعد ذلك ببضع سنوات (عام ١٩٣١) ، فلم يسع أبى إلا أن يرسل له تحية شعرية مع

المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب ، وكان قد سافر إلى بغداد حيث نزل ضيفاً على جلالته ، وقد غنى عبدالوهاب هذه التحية بين يدى جلالته ، وهى :

يا شراعاً وراء دجلة يجرى
في دموعى تجنبتك العوادى
سر على الماء كالمسيح رويداً
واجر فى اليم كالشعاع الهادى
وأت قاعاً كرفرف الخلد طيباً
أو كفردوسه بشاشة وادى
قف تمهل وخذ أماناً لقلبي
من عيون المها وراء السواد
والنواسيُّ والندامى أمنهم
سامر يملأ الدجى أو ناد
خطرت فوقه المهارة تعدو
فى غبار الآباء والأجداد
أمةٌ تُنشىء الحياة وتبنى
كبناء الأبوّة الأمجاد

تحت تاج من القرابة والملك ..م

... على فرق أريحى جواد

ملك الشط والفراتين والبطحاء..م

. . . أعْظِمْ بفيصل والبلاد

فى ذلك الوقت كان يدرس فى باريز مثَّالٌ لبنانى نابه يدعى الحويك، وقد رأى أن يصنع لأبى تمثالاً نصفياً؛ وقبل أبى بعد تردد طويل؛ إذ كان يبغض الجلوس طويلا لهذا الغرض.. ولما كان على أبى أن يبقى الساعات الطويلة كان علينا أن نسليه وهو أمر مملٌ لنا؛ لذلك أحضرنا له (المرحوم) الأستاذ خير الله الذى كان يحب الثرثرة ليحل محلنا.. والأستاذ خيرالله هذا كان صحفياً لبنانياً قديراً مثقفاً.. وكان محرراً فى جريدة «الطان».

وقد صُنعت لأبى فيما بعد تماثيل أخرى، ولكن تمثال الحويك الذى أشرت إليه الآن هو فى اعتقادى خيرها جميعاً وهو محفوظ لدينا..

كنا ونحن فى باريز، إذا عرضنا على أبى الانتقال إلى مدن المياه أو إلى الشواطىء المشهورة حين يظهر الحر

فى باريز ، كما يفعل أهل الوجاهة ، يرفض قائلا إنه لاداعى لذلك ؛ لأن جو باريز صحي فهى تصلح للسكنى صيفاً وشتاء إذ هى على ارتفاع عظيم عن سطح البحر ..

وكان يفرض علينا الإقامة فى فندق قديم معظم نزلائه مع الأسف ، من الشيوخ لوجوده فى مكان هادىء منعزل وذلك لأن مديرته فتاة جمعت بين صفتين قلّما تجتمعان فى شخص واحد وهما : الحسن والذكاء ، كان أبى يحب التحدث إلى هذه الفتاة كثيراً لأنه ، مع تقدمه فى السن ، كان قلبه فتياً .. ألم يقل فى كتابه (أسواق الذهب) : « تهرم القلوب كما تهرم الأبدان ، إلا قلوب الشعراء والشجعان » .

***

فى عام ١٩٢٦ أقيمت أول حفلة ساهرة كبيرة بكرمة ابن هانىء الجديدة بالجيزة بمناسبة زواج أخى علىّ من بنت خالته . وقد تبارى الشعراء الحاضرون فى إلقاء القصائد التى تناسب المقام ، فكانت الكرمة فى تلك الليلة أشبه بسوق عكاظ ! أما أبى ، فقد وضع قطعة خصيصاً لهـــذا الحادث

السعيد ، وغنّاها الأستاذ محمد عبد الوهاب فى السهرة ، كما سجلت بعد ذلك فى الاسطوانات ، وهى :

دار البشاير مجلسنا

وليل زفافك مؤنسنا

إن شا الله تفرح ياعريسنا

وان شا الله دايمًا نفرحبك

* * *

على السعادة وعلى طيرها

أدخل على الدنيا وخيرها

فرحه تشوف فى ابنك غيرها

وتعيش لأهلك ولصحبك

* * *

الشمس طالعه فى التُلى

ورده وعليها توب فُلّى

ملحه فى عين اللى ما يصلى

ولا يقولشى تتهنى

حرّة تصونك وتصونها

وتقوم بدارك وشؤونها

وتشوف عيونك وعيونها

دخلة ولادك والجنّه

* * *

دنيا جميلة قوم خدها

ستك وبالمعروف سيدها

قوم ياعريسنا بوس إيدها

وصلّ واطلب واتمنى

* * *

وقد تفضل سعد باشا بالحضور فى زفاف على ، ولكنه جاء مبكراً وانصرف مبكراً وذلك خشية من رطوبة الليل . وكان هذا تلطفاً من سعد ؛ لأنه لم يزر فى عهده الأخير بيتاً كما أنه لم يغش مجتمعاً .. وقد حضر فى أثناء وجوده بالكرمة مصوّر لالتقاط صورة لسعد وأبى ، فحدث أثناءها حوار رقيق أبان عما يكنه سعد لأبى من تقدير صحيح وود مكين . قال أبى إن الأستاذ الجديلى دبّر كل هذا ، فابتسم سعد

وقال : إنه تدبير تسرى فيه روح أمير الشعراء . فقال الأستاذ الجديلى : هذه صورة الخالدين . فقال سعد مشيراً إلى أبى : « هنا الخلود » .

وقد قُدمت الصورة إلى سعد بعد ذلك فتقبلها بقبول حسن ، وأنشأ الأستاذ الجديلى المقطوعة التالية ، فنقشت تحت الصورة ، ونصها :

يا صورة قد ضمخت بالمجد

يضوع فيها عبقٌ النَدّ

كرمت فى طوارفى وتلدى

تروين للدنيا معانى الخلد

من نفح شوقى وجلال سعد

***

وقد حظيت الكرمة الجديدة فى نفس هذا العام بزيارة شاعر الهند الكبير طاغور ، أقام له أبى حفلة تكريم كبيرة دعا إليها كثيرين من الأدباء والكبراء ، وقد حضرها الزعماء إذ كان الائتلاف السعيد قائماً بين الأحزاب إذ ذاك . وقد تفضل سعد باشا وكان رئيساً لمجلس النواب فأخرّ

انعقاد المجلس ساعة كى يتسنى لحضرات الأعضاء المدعوين عندنا تلبية الدعوة ، وهو تصرف كريم من سعد باشا أثّر فى أبى أشد التأثير .

وقد كلفنى أبى بالتوجه إلى فندق شبرد حيث نزل طاغور لأصحبه إلى المنزل، وقد حضر ومعه سيدتان هنديتان أيضاً ، وكان الثلاثة يلبسون اللباس الوطنى الهندى ، وكان طاغور فى هذه الملابس ، وبقامته الطويلة وشعره ذى الحلقات الكثيفة . . كأنه أحد الأنبياء الذين ذكروا فى التوراة . .

سألنى طاغور ونحن فى السيارة، فى الطريق إلى المنزل، عن مؤلفات أبى هل ترجمت إلى الانجليزية ؟ فأجبته بالنفى ، لأنه لم يكن ترجم شيء منها إذ ذاك ؛ فمجنون ليلى ترجمها فيما بعد الأستاذ أربرى عام ١٩٣٣

قال أبى لطاغور فى أثناء حديثه معه إنه يغبطه إذ أن عدد قرائه عظيم ، فالهند بلاد واسعة تضم أكثر من ٣٠٠ مليون من السكان .. فأجاب طاغور : حقاً ! إن الهند واسعة . ولكن مع الأسف كل ولاية فيها تتكلم لغة تختلف عن

لغة الأخرى ، لذلك أصبح من يفهمون كلامى لايتجاوز عددهم عشرة الملايين ! . ثم أضاف مبتسماً : بل أنت أحق منى بالاغتباط ؛ فإن قرّاءك هم العالم العربى كله ! . وفى هذه الحفلة غنّى الأستاذ محمد عبد الوهاب لأول مرة القطعة الآتية التى لحنها من رواية (مصرع كيلوباترة) . . التى كان أبى يعدّها إذ ذاك :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا
مالرُوحينا عن الحب غِنى
غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا
نحن فى الحب حديث بعدنا

* * *

رجّعتْ عن شجونا الريح الحنون
وبعينينا بكى المزن الهَتون
وبعثنا من نفاثات الشجون
فى حواشى الليل بَرقاً وسَنَى

* * *

خبّرى ياكأس واشهد ياوتر

وارو ياليل وحدث ياسحر

هل جنينا من رُبا الأنس السمر

ورشفنا من دواليها المُنى

***

الحياة الحب والحب الحياه

هو من سَرْحتها سِرُّ النواه

وعلى صحرائها مرّت يداه

فجرت ماءً وظلاً وجنى

***

نحن شعرٌ وأغانيُّ غدا

بهوانا راكب البيد حدا

وبنا الملاّحُ فى اليمّ شدا

وبكى الطير وغنى مُوْهنا

***

من يكن فى الحب ضحّى بالكرى

أو بمسفوح من الدمع جرى

نحن قرّبنا له مُلكَ الثرى

ولقينا الموت فيـــه هيّنا

***

فى الهوى لم نأل جهد المؤثر

وذهبنا مَثلاً فى الأعصُر

هو أعطى الحب تاجىْ قيصر

لِمَ لا أعطى الهوى تاجَىْ مِنا ؟

***

وقد سأل بعضهم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا عن رأيه فى هـــذه القطعة فقال : أنا والله لا أحب التكرار ، ولكن التكرار فى هذه القطعة حسن ..

***

كانت العلاقة بين سعد باشا وأبى فى ذلك الوقت على أحسن مايرام ، وكان قد اعتراها فى الماضى شىء من الفتور ويرجع الفضل فى إزالة الجفوة إلى مساعى الأستاذ الجديلى الذى كان كل منهما يحبه ويقدره ..

كان أبى يذكر على الدوام عهوداً كريمة كانت بينـه

وبين سعد باشا ، وكان من أغلى الذكريات عنده « ساعة » أهداها له سعد باشا فى مناسبة كريمة ذلك أن أبى كان بسويسرا والتقى هو وسعد باشا وقد كان سعد يختار هدية الزفاف بأم المصريين ، فاشترك أبى فى الاختيار ، ثم اختار فى الوقت نفسه تلك الساعة وأهداها لأبى .

وقد ذكر لى الأستاذ الجديلى أن التقاء سعد باشا وأبى لأول مرة كان مؤثراً إذ كان حاضره بل هو الذى مهد له . تبادلا فيه ذكريات عزيزة وذكرا أصدقاءهما فى الماضى ، وذكرا « نكات » عبد الكريم سلمان ، وحفنى ناصف ، واجتماعات الأميرة نازلى هانم ، وقاسم أمين ، واستطاب سعد باشا المجلس واستزاد أبى من حديثه . .

أما الأستاذ الجديلى ، فقد تعرف به أبى على النحو الآتى : كان أبى يتردد كثيراً فى الليل إلى حلوانى كان فى شارع فؤاد الأول يدعى « صولت » وكان يعج بالشباب الوطنى وهم حول النقراشى باشا يستمع إليهم ويصغون إليه ، فلفت نظر أبى شاب معمم ضئيل الجسم ولكنه لمح فيه حماسة وأدباً ، فسأل عنه فقيل له : هو الأستاذ الجديلى

متخرج فى مدرسة القضاء الشرعي ، وهو من خطباء الثورة ، وله شغف بالأدب ، وقد ترك السجن السياسى من ليالٍ ، وهو يردد فى نخار قصيدتك فيه وفى إخوانه المسجونين السياسيين ، التى مطلعها :

بأبى وروحى الناعمات الغيدا
الباسمات عن اليتيم نضيدا

والتى يقول فيها :

يا مصر أشبال العرين ترعرعت
ومشت إليك من السجون أسودا
قاضى السياسة نالهم بعقابه
خشن الحكومة فى الشباب عتيدا
أتت الحوادث دون عقد قضائه
فانهار بيِّنة ودُكَّ شهودا

الخ . . . .

وعند انفضاض السامر « بصولت » كان الأستاذ الجديلى أيضاً يسأل عن أبى ويود أن يتعرف به ، فتلاقيا عند باب « صولت » وحيّا كل منهما الآخر فتعارفا

وتواعدا التزوار ... من تلك اللحظة أخذت صلات المودة تتوثق بينهما حتى أنه لم يكن يمضى يوم دون أن يمر أبى بالأستاذ الجديلى (بالمنيرة) فى طريقه إلى المنزل ظهراً أو مساء ، وقد عهد أبى إليه فى تحليل رواية «قمبيز» فوضع لها تعريفاً أدبياً دقيقاً ، كما عهد إليه أن يشرف على طبع بعض قصائد من الجزء الأول من الشوقيات . .

* * *

مما زاد فى محبة أبى لسعد باشا تفضل دولته بترشيحه لمجلس الشيوخ عن دائرة سينا ، وقد اختارها له لأنها مهبط الديانات ومسرى الوحى .. كذلك لأن هذه الدائرة لا تحتاج إلى نضال حزبى .. وفعلا انتخب أبى عن هذه الدائرة ، وكان انتخابه بالتزكية .

كان أبى كثير التردد إذ ذاك على « بيت الأمة » وكان يستصحبنى أحياناً إلى هناك ، فكنت أذهب معه وأنا مغتبط لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جداً ، ولأن دولته كان يتفضل بملاطفتى .

وكان الدكتور محجوب ثابت قد تقدم فى ذلك الوقت

للانتخابات فى إحدى دوائر الإسكندرية وانتخب فعلا ضد مرشح الوفد.. ولكن بعد نضال عسير.. أما سعد باشا فكان فى دخيلة نفسه مع الدكتور محجوب إلا أنه لم يستطع ترشيحه لأن تقاليد الوفد كانت تقضي بترشيح مرشح الدائرة الوفدى السابق. ويوم نجاح الدكتور محجوب كنا فى « بيت الأمة » ، فكلفنى سعد باشا بالذهاب إلى المحطة لإحضار الدكتور محجوب إليه بمجرد وصوله ، فلما وصل جررته جراً لأنه لا يتحرك من تلقاء نفسه وذهبت به إلى « بيت الأمة » وهناك قبّله سعد باشا مهنئاً. فأجاب الدكتور على هذه التهنئة بقوله : والله يا باشا لقد انتزعت الدائرة من مخالب الأسد ! فكان رداً جميلا من الدكتور جمع بين الثناء والكرامة . . لأن المقصود بالأسد رئيس الوفد . .

أما صلة أبى بالدكتور محجوب فهى قديمة جداً ، ولكنها توطدت فى تلك الفترة من الزمن ، إذ صار الدكتور من ضيوف « الكرمة » المزمنين . . ولكنه مع الأسف كان آخر من يحافظ على موعد غداء أو عشاء . . لأن طباعه كانت بوهيمية إلى أقصى درجة !

وكان الدكتور محجوب عالما واسع الاطلاع ، وبخاصة في مسائل السودان ، كان يحفظ أسماء القبائل هناك واحدة واحدة ، والمقاطعات السودانية يعرف أسماء كل قرية فيها ولكنه مع الأسف لم يكن مرتبا في معلوماته . وما كان أصدق سعد باشا حين وصفه بمكتبة غير منظمة . . كذلك كان الدكتور يتذوق الشعر الجيد ، ولكنه كان يكسر أحيانا الأبيات إذا أنشدها عن ظهر قلبه ، فيغضب أبي من هذا ويلومه . .

وقد ظفر الدكتور محجوب من أبي بمقدار من الشعر قاله فيه لم يظفر به صديق آخر . . ولكن بعض هذه الأشعار كان يثير غضبه زاعماً أنه سوف يقضي على سمعة عيادته ، وبخاصة الأبيات التالية فقد أخرجت الدكتور « محجوب » عن طوره عندما ناولها أبي للأستاذ الجديلي ليتلوها خلال إحدى ليالي السمر بالكرمة ، إذ هم الدكتور بالانصراف ، فهرول وراءه المدعوون ولم يرجع الدكتور إلا عندما صاح في وجهه أحدهم قائلا : ويحك يا دكتور ! كان الأولى بك أن تفرح لا أن تغضب ، فقد ظفرت بشعر شوقي الذي

سيخلدك أبد الآبدين .. فهدأ الدكتور ثانية وعاد إليه مرحه وإليك هذه الأبيات :

براغيث محجوب لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمى
تشق خراطيمها جـوربى
وتنفـذ فى اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف راح احتجمـ
ـت ... فجاء الخريف فلم أحجم
ترحب بالضيف فوق الطريق
... فباب العيادة فالسلم
قـد انتشرت جوقة جوقة
كما رشت الأرض بالسمسم
وترقص رقص المواسى الحداد
... على الجلد والعلق الأسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء
... وترفع ألويـة الموسم

إذا ما « ابن سينا » رمى بلغما

رأيت البراغيث فى البلغم

وتبصرها حو « بيبا » الرئيس

. . وفى شاربيه وحول الفم

وبين حفائر أسنانه

مع السوس فى طلب المطعم

وكان الدكتور محجوب مشهوراً بالتقتير ، وأظن أن هذه الشهرة كانت على شيء من الصحة ، فإنى مازلت أذكر حصانه الذى سمى « مكسوينى » لفرط هزاله . . وهو اسم بطل إرلندى مشهور انتحر جوعا . وإليك بعض ما قال أبى فى هذا الحصان البائس عندما استبدل به الدكتور سيارة :

. . ولا والله ما كلفت محجوباً ولا باره

فلا البرسيم تدريه ولا تعرف نوّاره

وقد تروى على «صلت» إذا نادمت سماره

وقد تسكر من خود على الإفريز معقاره

وقد تشبع يا ابن الليل من رنّة قيثاره !

كما قال فيه أيضاً ذاكراً جهاده وجهاد سيده فى القضية الوطنية :

تفديك يا « مكس » الجياد الصلادمُ
وتفدى الأساة النطس من أنت خادمُ
كأنك إن حاربت ، فوقك عنتر
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم
ستجزى التماثيل التى ليس مثلها
إذا جاء يوم فيه تجزى البهائم
فإنك شمس والجياد كواكب
وإنك دينار ، وهن الدراهم
. مثال بساح البرلمان منصب
وآخر فى (بار اللوا) لك قائم
ولا تظفر (الأهرام) إلا بثالث
مزامير داود عليه نواغم(١)
وكم تدعى السودان يا مكس هازلا
وما أنت مسود ولا أنت قاتم

(١) يعنى المأسوف عليه داود بركات رئيس تحرير الأهرام لذلك العهد .

وما بك مما تبصر العين شهبة
ولكن مشيب عجلته العظائم
كأنك خيل الترك شابت متونها
وشابت نواصيها وشاب القوائم
فيارب أيام شهدت عصيبة
وقائعها مشهورة والملاحم !

كما أني ما زلت أذكر يوماً قصدت فيه الدكتور فى العيادة لأريه دملا يؤلمنى فى رجلى ، وكان الوقت ظهراً ، فألح على فى البقاء لأتغدى معه فبقيت ، وكان قد استبق قبلى ثلاثة أشخاص ، أى كنا به خمسة ، وما كان أشد دهشتى حين قدم لنا رطلا واحداً من الكباب ! فضلا عن أنه كان يراقب المدعوين حتى لا يزدرد الواحد منهم أكثر من قطعة واحدة من اللحم فى المرة !

* * *

كان هناك طبيب آخر يتردد كثيراً على الكرمة ، على أنه لم يكن لا فى نبوغ طبيبنا النمساوى ولا فى خفة ظل الدكتور محجوب ، وكان سبب تعلق أبى به وكثرة دعوته

إياه مهارته فى فن الطهي ، فقد كان يحسن صنع الأصناف الفرنسية إذ عاش فى فرنسا طويـــلا ، وبخاصة صحن « البويابس »[1] ، لأن أبى كان يتذوق الأكل الجيد مع أنه لم يكن أكولا . . أذكر أنه رأى أحد المدعوين عندنا يأكل الديك الرومى فى نهم وبشكل يثير الاشمئزاز ... فامتنع عن أكل الديك الرومى بقية حياته !

* * *

وقد دعى عندنا فى هذا العهد أيضاً السيد الثعالبي الزعيم التونسى الشهير ، فعلم منه أبى خلال الحديث أنه يجيد صنع ذلك الطعام المغربى الشهير « بالكسكسى » فما كان من أبى إلا أن استصحبه إلى المطبخ حيث صنع لنا السيد الثعالبي وجبة من « الكسكسى » كانت شهية حقاً ، مع إننا فى ذلك اليوم تناولنا غداءنا فى الساعة الرابعة !

* * *

من الزعماء الذين أحبهم أبى وكان يذكرهم دائما فى مجالسه

---

(١) شربة بها كثير من أنواع السمك .

الخاصة المغفور له مصطفى كامل باشا ، وعلاقته به ترجع إلى عهد الصبا . .

لدينا رواية ألفها مصطفى ، وهو طالب فى مدرسة الحقوق، وقد أهداها إلى جدى لأبى وهى تدل على مدى هذه الصلة ، وإليك صورة الإهداء : « هدية المؤلف لحضرة والده الأجل على بك شوقى حفظه الله » (كامل) . . وهى رواية تاريخية تمثيلية عن فتح الأندلس .

ويقول أبى إنه كان مع مصطفى عندما اختار شماراً له جملته المشهورة : لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ، وكان مصطفى قد وجد الجزء الأول منها أى « لا حياة مع اليأس » ، فأشار عليه أبى أن يضيف : ولا يأس مع الحياة !

وكان أبى يعاونه فى كفاحه الوطنى المجيد ، وقد أشار إلى ذلك فى قصائده ، وبخاصة فى القصيدة التى نظمها بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى إذ قال :

.. أتذكر قبل هذا الجيل جيلا

سهرنا عن معلّمهم وناما

مهار الحق بَعضنا إليهم

شكيم القيصرية واللجاما[1]

(لواؤك) كان يسقيهم بجام

وكان الشعر بين يدىّ جاما[2]

من الوطنية استبقوا رحيقاً

فضضنا عن معتقها الختاما

غرسنا كرمها فزكا أصولا

بكل قرارة وزكا مداما

***

كان المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب كثيراً ما يصاحب أبى إذ ذاك ، وقد علمت من عبد الوهاب أن أول مرة قدم فيها لأبى كان سنة ١٩٢٤ خلال حفلة أقامها معهد الموسيقى الشرقى فى كازينو سان استفانو بالاسكندرية وقد كان أبى سمع عبد الوهاب قبل ذلك ببضع سنوات عندما كان يغنى فى مسرح « برنتانيا » وكان حدثا فى ذلك

---

(١) المراد بشكيم القيصرية ولجامها ، قسوة الاحتلال وجبروته .

(٢) الجام إناء من فضة

الوقت ، فتألم أبى لأن إرهاق الصوت فى مثل هذه السن الصغيرة قد يقضى عليه .. لذلك اتصل بحكمدار العاصمة ورجاه أن يمنع غناء الأحداث على المسارح .

وجاءه مرة الأستاذ محمد عبد الوهاب وعلى وجهه مسحة من الحزن والألم، فسأله أبى عن السبب، فأخرج عندئذ محمد من جيبه بعض مجلات كانت تهاجمه ، فقال له أبى لا تحزن ، بل يجب أن تسر من ذلك ، لأن النقد يرفعك ويزيد فى شهرتك ، وسأثبت لك ذلك بالعمل . . ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك ، ففعل محمد ، فقال له أبى باسما : ألم أقل لك إن النقد رفعك ؟

***

من الأصدقاء الذين كان أبى يحبهم أيضا كثيراً إسعاف بك النشاشيبي أديب فلسطين الكبير ؛ كان أبى يحبه لتحمسه للاسلام.. كأنه واحد من الصحابة أو الأنصار فضلا عن خفة ظله .. والغريب فى أمر إسعاف بك هذا أنه إذا تحدث فى مجلس خاص كان فى وداعة الحمل، فإذا اعتلى المنبر صار إعصاراً..

وقد وضع إسعاف بك كتابا فى السنة التى توفى فيها

أبى أى سنة ١٩٣٢ سماه : « البطل الخالد صلاح الدين ، والشاعر الخالد أحمد شوقي »

***

من الشخصيات الأدبية اللطيفة أيضاً التى كان أبى متصلا بها فى ذلك العهد المغفور له الأمير حيدر فاضل ، وقد كان شاعراً ممتازاً ، ولكن باللغة الفرنسية . .

صحبت أبى يوما فى إحدى زياراته له ، وكان يقطن فى منزل متواضع بشارع الملكة نازلى ، إذ كان سموه بعيداً عن حب المظاهر ، وكان ينتظرنا فى مكتبه وهو متربع على ديوان وثير ويرتدى عباءة خضراء وعلى رأسه عمامة ضخمة خضراء أيضاً ، ولما كان سموه بدينا جداً وقصيراً فقد كان منظره عجيباً . . أثار ضحكى ومن عادتى مع الأسف إذا شرعت أضحك فلا سبيل إلى التوقف . .مما أحرج أبى الذى اضطر أن يخلق من فوره موضوعا مضحكا ليتستر على . . وقد دار الحديث بالفرنسية التى يجيدها سموه كل الإجادة . . وهو واسع الاطلاع ، وبخاصة فى الفلسفة الشرقية . .

وقد اعتذر لأبى عن ملبسه الشرقى العجيب قائلا : إنه

فعل ذلك لأنه يحن من وقت لآخر، إلى ذلك الزمن الخيالى الجميل .. البعيد.. ألا وهو زمن ألف ليلة وليلة ..

ولما انصرفنا من عند سموه عنفنى أبى على تصرفى، فقلت له معتذراً: ولكن بذمتك يا بابا ما رأيك فى العمامة فأغرق أبى فى الضحك .. وقد نظم سموه قطعة شعرية جميلة بالفرنسية اسمها « الرجل السعيد » وطلب من أبى أن ينقلها إلى العربية ففعل، وإليك القطعة وهى مترجمة ترجمة تكاد تكون حرفية:

عفيف الجهر والهمس — قضى الواجب بالأمس
ولم يعرض لذى حق — بنقصان ولا بخس
وعند الناس مجهول — وفى ألسنهم منسى
وفيه رقة القلب — لآلام بنى الجنس
فلا يغبط ذا نعمى — ويرثى لأخى البؤس
وللمحروم والعافى — حوالىْ زاده كرسى
وما نمّ ولا همّ — ببعض الكيد والدس
ينام الليل مسروراً — قليل الهم والهجس
ويصبح لا غبار على — سريرته، كما يمسى

* * *

فيا أسعد من يمشى	على الأرض من الأنس
ومن طهره الله	من الريبة والرجس
أنل قدرى تشريفاً	وهب لى قربك القدسى
عسى نفسك أن تدمج	فى أحلامها نفسى
فألقى بعض ما تلقى	من الغبطة والأنس !

والأبيات كما ترى رقيقة، تنم عن روح رقيقة ونفس طيبة خيرة .. ألا رحم الله سموه !

***

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٦ رزق أخى على ولداً سماه أحمد تيمنا باسم جده لأبيه، وقد أحبه أبى حباً جما، وقد نظم فيه قصيدة فى أحد أعياد ميلاده ضاع بعض أبياتها مع الأسف وإليك ما وجدته منها :

روحى ولذة عينى	عوّذته بالحسين
سلالتى من علىّ	ولدته مرتين
أحببته كأبيه	وزدته حبتين
طفل علينا أمير	مقبّل الركبتين
رضاه غير قليل	وسخطه غير هين

يقصي ويدني بأولى   إشارة الراحتين

ويزدهى بخداع   وقول زور ومين

ولكن هذا ليس معناه أن أبى كان يكره خلف البنات ، بل الأمر بالعكس فإن ما قاله من الشعر فى أختى لأكثر مما قاله فى على أوفق ..

فمما قال فيها عندما اكتملت حولا :

أمينـــتى فى عامها   الأول مثـل الملَكَ

صالحة للحب من   كلٍّ وللتـــبركَ

كم خفق القلب لها   عند البكا والضحك

وكم رعتها العين   فى السكون والتحرك

فإن مشت نخاطرى   يسبقهـا كالممسك

ألحظها كأنهـــا   من بصرى فى شرك

فيا جبين السعد لى   ويا عيون الفلك

ويا بيــاض العيش   فى الأيام ذات الحلك

إن الليالى وهى لا   تنفك حرب أهلك

لو أنصفتك طفـلة   لكنت بنت الملك

ثم قال يهنئها بسنتها الثانية :

أمينة يا بنتى الغاليـــــه أهنيك بالسنة الثـانيه
وأسأل أن تسلمى لى السـ ـنين وأن ترزقى العقل والعافيه
وأن تقسمى لأبر الرجا ل وأن تلدى الأنفس العاليه
ولكن سألتك بالوالدين وناشدتك اللعب الغاليه
أتدرين ما مر من حادث وما كان فى السنة الماضيه
وكم بلت فى حلل من حرير وكم قد كسرت من الآنيه
وكم سهرت فى رضاك الجفو ن وأنت على غضب غافيه
وكم قدخلت من أبيك الجيو ب وليست جيوبك بالخاليه
وكم قد شكا المر من عيشه وأنت وحلواك فى ناحيه
وكم قد مرضت فأسقمته وقمت فكنت له شافيه
ويضحك إن جئته تضحكـ ين ويبكى إذا جئته باكيه
ومن عجب مرت الحادثا ت وأنت لأحداثها ناسيه
فلو حسدت مهجة ولدها حسدتك من طفلة لاهيه !

كما نظم هذه الحكاية فيها وفى كلب لها أسود صغير :

يا حبـــذا أمينة وكلبها تحبه جـــداً كما يحبها
أمينتى تحبو إلى الحـولين وكلبها يناهز الشهرين
لكنها بيضاء مثل العاج وعبدها أسـود كالدياجى

يلزمها نهارها وتلزمه ... ومثلما يكرمها لا تكرمه !

فعندها من شدة الإشفاق ... أن تأخذ الصغير بالخناق

فى كل ساعة له صياح ... وقلما ينعم أو يرتاح

وهذه حادثة لها معه ... تنبيك كيف استأثرت بالمنفعه

جاءت به إلىَّ ذات مره ... تحمله وهى به كالبرّه

فقلت أهلا بالعروس وابنها ... ماذا يكون يا ترى من شأنها!

قالت: غلامى يا أبى جوعان ... وما له كما لنا لسان

فرهموا يأتو بخبز ولبن ... ويحضروا آنية ذات ثمن

فقمت كالعادة بالمطلوب ... وجئتها أنظر من قريب

فعجنت فى اللبن اللبابا ... كما ترانا نطعم الكلابا

ثم أرادت أن تذوق قبله ... فاستطعمت بنت الكرام أكله

هناك ألقت بالصغير للورا ... واندفعت تبكى بكاء مفترى

تقول بابا أنا (دحّا) وهو (كخ) ... معناه بابا لىَ وحدى ما طبخ

فقل لمن يجهل خطب الآنيه ... قد فطر الطفل على الأنانيه!

* * *

كذلك كان يرى أبى أن البنت أشد حنواً بأبويها من الولد.. وقد ذكر هذا فى رثائه للوزير الكبير مصطفى

فهمى باشا الذى مات ولم ينجب غير بنات :

...لا تذهبن على الذكور بحسرة

الذكر ثم سلالة العظماء

وأرى بناة المجد يثلم مجدهم

ماخلفوا من طالح وغثاء

إن البنات ذخائر من رحمة

وكنوز حب صادق ووفاء

والساهرات لعلة أو كبرة

والصابرات لشدة وبلاء

والباكيات حين ينقطع البكى

والزائرات فى العراء النائى

والذاكرات ما حيين تحدثا

بسوالف الحرمات والآلاء

...الخ

***

لم أعثر مع الأسف على شىء من رسائله الخاصة إلينا ونحن كبار، لقلتها .. إذ كان يؤثر فى مراسلاته معنا البرقيات

للسرعة ، كنت إذا سافرت إلى الخارج طلب منى أن أعده بأن أرسل له كل أسبوع برقية أطمئنه فيها على صحتى ، وكان يعطيني نقوداً خاصة لذلك ، فإذا تأخرت جاءتنى منه برقية يقول فيها : أبرق عن الصحة !

فى عام ١٩٢٧ أعاد أبى طبع ديوانه «الشوقيات» فأقيمت له بهذه المناسبة عدة حفلات تكريم اشترك فيها كثير من الأدباء والعظماء ، كما حضر لها خصيصاً وفود من الأقطار الشقيقة .. وأهم هذه الحفلات، حفلة الأوبرا التى كانت تحت رعاية المغفور له الملك فؤاد ورآسة سعد باشا الذى أناب عنه الأستاذ الجديلى بك فى إلقاء كلمته ، لاعتكاف دولته . وإليك هذه الكلمة :

« يشرفنى ويسرنى أن أترأس هذا الاحتفال الجليل لتكريم شاعرنا العظيم أمير الشعراء . وكنت أود أن أشارك حضراتكم فى حضور هـــذا الاحتفال ، ولكن ضعف صحتى حرمنى هذا الشرف الأكبر فأنبت حضرة صاحب المعالى محمد فتح الله بركات باشا ليبلغ حضراتكم تحيتى ويهدى إليكم وافر احترامى ، ويخص بأطيب تحياتى

وفود الأقطار العربية الذين جشموا أنفسهم مشقة السفر لمشاركتكم فى هـذا التكريم الكريم ، وإنى أرحب بقدومهم ، وأرجو لهذا الاجتماع النبيل كل نجاح ، آملا أن يكون وسيلة صالحة لتوثيق عرا المودة والإخاء بين أهل اللغة العربية الشريفة فى سائر الأقطار الشرقية .»

ثم تكلم رئيس لجنة التكريم المرحوم أحمد شفيق باشا وقفاه الأستاذ أحمد حافظ عوض بك سكرتير لجنة الاحتفال وقام بعده الأستاذ محمد كرد على نائبا عن المجمع العلمى العربى بدمشق ، وتلاه شبلى بك ملاط شاعر لبنان فألقى قصيدة عصماء ، وتبعه شاعر القطرين خليل بك مطران بقصيدة أخرى عامرة الأبيات ، ووقف بعد ذلك حافظ بك ابراهيم وألقى قصيدته العينية المشهورة التى بايع فيها أبى بإمارة الشعر باسمه و باسم شعراء الشرق ..

وعند ما قال :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذه وفود الشرق قد بايعت معى

نهض أبى من مقعده وكان يجلس فى المقصورة التى

تشرف على خشبة المسرح وعانق حافظ بك طويلا ..

وفى ختام هذه الحفلة ألقى الأستاذ محمد توفيق دياب بك القصيدة التى نظمها أبى شكراً للمحتفين به، وهى التى مطلعها:

مرحباً بالربيع فى ريعانه وبأنواره وطيب زمانه

ولما كانت قد قدمت لأبى عدة هدايا بمناسبة هذا الاحتفال فقد أشار إليها فى هذه القصيدة، فقال عن نخلة صغيرة من الذهب الخالص، وثمارها لؤلؤ وقاعدتها مرجان، هدية من أمير البحرين:

قلدتنى الملوك من لؤلؤ البحرين ..

.. آلاءهـــا ومن مرجانه

نخلة لا تزال فى الشرق معنى

من بداواته ومن عمـــرانه

ثم قال فى يراع من الفضة قدمه النادى العربى فى بومباى:

وحبتنى بومباى فيها يراعا أفرغ الود فيه من عقيانه

ليس تلقى يراعها الهند إلا فى ذرا الخلق أو وراء ضمانه

أنتضيه انتضاء موسى عصاه يفرق المستبد من ثعبانه

يلتقى الوحى من عقيدة حُرٍّ كالحوارىّ فى مدى إيمانه

غير باغ إذا تطلب حقا   أو لئيم اللجاج فى عدوانه

وأقيم فى اليوم التالى اجتماع كبير فى دار « الجمعية الجغرافية الملكية » ألقى فيه سماحة السيد أمين الحسينى كلمة باسم فلسطين ، ثم وقف شاعر القطرين خليل بك مطران فألقى قصيدة للأمير شكيب أرسلان مطلعها :

نادالقريحةما استطعت نداءها

ان الحقـوق لتقتضيك أداءها

وبعده نهض الأستاذ الكبير إسعاف بك النشاشيبى فألقى خطبة عنوانهـا : « العربية وشـاعرها الأكبر أحمد شوقى بك » ، وتبعه بمحاضرة الأستاذ السيد محمد أحمد داوود من علمـاء تطوان بالمغرب الأقصى ، ثم ألقيت قصيدة للأمير صالح بن سـعد بن سالم من عدن ، وقصيدة أخرى للأستاذ بدر الدين النعسانى من علماء حلب وعضو المجمع العلمى العربى ثم كلمة للأديب البلجيكى فندنبرج نائباً عن شعراء بلده .. الخ .. ثم حفلات أخرى .. منها سهرة فى سراى كازينو الجزيرة .. ونزهة نيلية على الباخرة « بريطانيا » ما بين روض الفرج والقناطر الخيرية ذهابا وايابا .. الخ .

وقد اختتمت هذه الحفلات بحفلة ساهرة كبيرة أقامها لهم أبي فى الكرمة ، كانت الكرمة خلالها . على حد تعبيره فى « عرس القوافى » ، كما سلمت لأبي فى تلك السهرة رسالة كان لها وقع عظيم فى نفسه ، إذ هى تحية من زعماء الثورة السورية ، كتبت بميدان القتال وقد وقعها هؤلاء الأبطال واحداو واحدا . . وقد أشار أبى إليها فى قصيدته فى ذكرى شهداء استقلال سوريا إذ قال :

. . . ذكرت المهرجان وقد تجلّى
ووفد المشرقين وقد توالى
ودارى بين أعراس القوافى
وقد جليت سماء لا تعالى
تسلل فى الزحام إلىّ نضو
من الأحرار تحسبه خيالا
رسول الصابرين ألمّ وهْناً
وبلّغنى التحية والسؤالا
دنا منى فناولنى كتابا
أحسّت راحتاى له جلالا

وجدت دم الأسود عليه مسكا

وكان الأصل فى المسك الغزالا

كأن أساميَ الأبطال فيه

حواميم على رق تتــالى

رواة قصائدى ، قد رتلوها

وغنوها الأسنّة والنصــالا

إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها

فكانت فى الخيام لهم نقالا

* * *

فى عام ١٩٢٨ توفى أمين بك الرافعى فاغتمّ أبى لموته إذ كان يجله كثيراً ؛ فقد كان أمين بك فى الصحفيين السياسيين يعد مثلا عالياً لطهارة الذمة ونبل الغاية ونزاهة الضمير .. وكان أبى يتردد عليه فى مكتبه بالجريدة وقد أشار إلى ذلك فى رثائه له ، كما أشار إلى صفاته الحميدة فقال :

.. لست أنساك قابعاً بين درجيْك ..

... مكباً عليهما مشــغولا

قد تواريت فى الخشوع نخالوك ..

.. ضئيلا وما خلقت ضئيـــلا

سائل «الشعب» عنك و«العلم» الخفّاق..

.. أو سائل «اللواء» الظليلا(١)

كم إمام قربت فى الصف منه

ومغن قعدت منه رسيلا

تنشد الناس فى القضية لحناً

كالحوارىّ رتّل الإنجيلا

ماضياً فى الجهاد لم تتأخر

تزن الصف أو تقيم الرعيلا

ما تبالى مضيت وحدك تحمى

حوزة الحق أم مضيت قبيلا

* * *

فى ذلك العهد رغب أبى عن المصيف فى أوروبا وصار يتردد على لبنان الذى افتتن بمحاسنه إلى حد أنه شبهه بالخلد فقال:

.. لبنان والخلد، اختراع الله لم

يوسم بأزينَ منهما ملكوته

(١) الشعب والعلم واللواء، أسماء صحف كان الفقيد يحررها.

هو ذروة فى الحسن غير مرومة

وذرا البراعة والحجى « بيروته »

ملك الهضاب الشمّ سلطان الربى

هام السحاب عروشه وتخوته

سيناء شاطره الجلال فلا يُرى

إلا له سُبُحاته[1] ، وسموته[2]

والأبلق الفرد انتهت أوصافه

فى السؤدد العالى له ونعوته

جبل على آذار يزرى صيفه

وشتاؤه يئد القرى جبروته

أبهى من الوشى الكريم مروجه

وألذ من عطل[3] النحور مروته[4]

يغشى روابيه على كافورها

مسك الوهاد فتيقه وفتيته[5]

---

(١) السبحة بضمتين : الجلال (٢) السمت بالفتح هيئة أهل الخير
(٣) عطل النحر من الحلى خلا (٤) المروت جمع مرت وهى المفازة بلانبات (٥) فتق المسك استخرجه بشىء يدخله عليه ، والفتيت المفتوت ٠

وكأن أيام الشباب ربوعه

وكأن أحلام الكعاب بيوته

وكأن ريعان الصبا ريحانه

سر السرور يجوده ويقوته[1]

وكأن أثداء النواهد تينه

وكأن أقراط الولائد توته

وكأن همس القاع فى أذن الصفا[2]

صوت العتاب ظهوره وخفوته

وكأن ماءهما وجرس[3] لجينه

وضح[4] العروس تبينه وتصيته[5]

* * *

ولم يكن جمال الطبيعة وحده الذى حبب أبى فى لبنان بل كانت كذلك محبة أهله له ، وحفاوتهم البالغة به كلما ذهب إلى هناك . فليس ثمة شعب فى الشرق ، على ما أعتقد يهتم بالشعر والأدب كما يهتم هؤلاء القوم بهما ، وأذكر

---

(١) يقوته : يطعمه (٢) الصفا : الصخر (٣) الجرس : الصوت
(٤) الوضح : حلى من الفضة (٥) تصيته : تجعله يصوت .

الحادث الآتى دليلا على ذلك : كنا ذات يوم فى « عاليه » واقفين أمام الفندق ، فتقدم ماسح أحذية واستأذن أبى فى تنظيف حذائه له فأذن له أبى ، فسأل أحد الحاضرين ماسح الأحذية وكلاهما لبنانى ، أهو يعرف السيد الذى ينظف له حذاءه ؟ فأجاب ماسح الأحذية فى زهو : طبعاً ياسيدى هو شاعر مصر الكبير الذى قال :

قبر الوزير تحية ، وسلاماً

الحلم والمعروف فيك أقاما

ثم أنشد القصيدة كلها دفعة واحدة ! . وهى مرثية أبى فى بطرس باشا غالى .

وكاد أبى يذهب ضحية حادث سيارة فى الجبل ؛ لأن الطرق فيه ضيقة ، والمنعطفات خطيرة ، وسائقو السيارات هناك يسيرون بسرعة مخيفة ، حدث ذلك وهو فى طريقه إلى «عاليه» إذ كان على موعد مع شاعر لبنان الكبير بشارة الخورى ، وقد أشار إلى هذا بشارة فى مرثيته لأبى فقال :

... « شوقى » أتذكر إذ « عاليه » موعدنا

عنا وما نام دهر عن مقادره

وإذ طلعت علينـــــــا أصفراً وجلاً

كالبدر خلف رقيق من ســـــتائره ...

وبلغ من حب اللبنانيين لأبى أنهم أطلقوا اسمه على أحد الشوارع الكبيرة فى بيروت.

وليس أبى بأول شاعر فتنه جمال لبنان وسحرته طبيعته، «فلامرتين» الشاعر الفرنسى الوجدانى هام به من قبل، على أنه كان سيىء الحظ فى إقامته هناك إذ فقدَ خلالها ابنته المحبوبة ..

وقد زار أبى خلال إحدى هذه الرحلات دمشق عاصمة الأمويين الشهيرة، فاستقبله شبابها استقبالا حماسياً عظيما. وقد ذكر هؤلاء الشباب فى القصيدة التى نظمها عنها إذ ذاك فقال:

... نزلتُ فيها بفتيان جحاجحة

آباؤهم فى شباب الدهر غسّانُ [1]

بيض الأسرَّة [2] باقٍ فيهمُ صَيدٌ

من (عبدشمس [3]) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له

لو أن إحسانكم يجزيه شكران

(١) غسان: أبو قبيلة باليمن منهم ملوك غسان وكانوا ملوكا للشام.
(٢) الأسرّة: الوجوه (٣) عبد شمس: يعنى بنى أمية.

ما فوق راحاتكم يوم السماح يدٌ

ولا كأوطانكم فى البشر أوطان

ثم زار فى دمشق مسجدها الأموى التاريخى، وقد بكى هناك، كما بكى من قبل فى جامع قرطبة، بنى أمية الأمجاد الذين شيدوا المسجدين فقال:

مررت بالمسـجد المحزون أسأله

هل فى المصلّى أو المحراب (مروان)

تغيّر المسجد المحزون واختلفت

على المنـابر أحرار وعُبـدان

فـلا الأذان أذانٌ فى منـارته

إذا تعـالى ولا الآذان آذان

***

فى عام ١٩٣٠ توفيت عمتى فسافر أبى بعد تشييع الجنازة مباشرة إلى الإسكندرية، أى إنه لم يحضر ليالى المأتم، فانتقده بعض الأقارب على هذا التصرف. والواقع أن تخلفه عن تأدية هذا الواجب لم يكن جحوداً بأخته وإنما هو حساسية شديدة.. استدللت على هذا بأننا نحن أولاده

وكان يحبنا حباً جما ، عندما يمرض أحدنا مرضاً شديداً كان يهرب من البيت ، بل يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك حتى يزول الخطر . ومن الأدلة على هذه الحساسية الشديدة أن والدته لما توفيت فى حلوان ، وكنا إذ ذاك فى أسبانيا ، رثاها بمرثية طويلة ، ثم طوى هذه المرثية فلم ينشرها طول حياته ، ونشرناها نحن بعد وفاته . ذلك لأنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها فيما بعد ، وهى القصيدة التى مطلعها :

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما
أصاب سـويداء الفؤاء وما أصمى

ولما عدنا إلى مصر بعد المنفى ، لم يطق أن يذهب إلى حلوان حيث ماتت أمه المحبوبة . .

ومن ظلم المقادير أنها ماتت يوم إعلان الهدنة ، وقد أشار إلى ذلك فى تلك المرثية إذ قال :

... فلما بدا للناس صبح من المنى
وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى
وقرّت سيوف الهند وارتكز القنا
وأقلعت البـلوى وأقشعت الغمّى

وحنّت نواقيس ورنّت مآذن

ورفّت وجوه الأرض تستقبل السلما

أبى الدهر من دون الهناء ولم يزل

ولوعاً ببنيان الرجاء إذا تمّا

ومما يدل على محبته لأهله المتاعب التى تحمّلها خلال مرض أبيه ؛ فقد كان يحضر له يومياً على ظهر دابة الماء العذب من القاهرة .. لأن أباه كان يقيم إذ ذاك فى ضاحية ليس بها ماء عذب .

ومن الأمثلة أيضاً على وفائه لأهله ما يلى : كان له ابن خال مريض بالسل ، وكان المرض متقدماً ومع ذلك كان أبى يجلس إليه الساعات الطويلة ويتناول معه الطعام مع استعماله نفس الأوانى والمغارف حتى لا يشعر ابن خاله عما يؤلمه . وكان ابن خاله المسكين لا يشعر بدنوّ أجله ؛ فقد كان يخرج من جيبه — من وقت لآخر — كيساً مملوءاً بالذهب ثم ينثره على السرير ويصيح : انظر يا أحمد عندما أشفى من مرضى بإذن الله نسافر إلى باريز معاً حيث ننفق هذه النقود فى اللهو والمرح .. ويقال إن معظم المرضى بالسل هم

على هذا المنوال من حيث التفاؤل والأمل الشديد فى الشفاء.
وكان ابن خاله هذا طويل الأنف فنظم أبى فيه مداعباً هذين البيتين :

لك أنف يا ابن خالى تعبت منه الأنوفْ
أنت بالبيت تصلّى وهو بالركن يطوف!

***

١٩٣١ و ١٩٣٢ هما العامان اللذان اشتغل أبى فيهما أكثر من أى وقت آخر فى إنجاز رواياته التمثيلية ، كأنه كان يحس بدنو أجله ، ففى هذه الحقبة أتم «مجنون ليلى » ثم أعاد نظم «على بك الكبير» كما ألف « قمبيز» و« الست هدى» و « البخيلة » وشرع فى وضع رواية عن محمد على الكبير ؛ ولكن هذا الاجتهاد كان مع الأسف على حساب جسمه الضئيل الذى ناء بالمرض .. وقد أمره الأطباء بملازمة الحجرة إذ ذاك ، ومنعوه من معظم متعه لذلك صار سريع التهيج .. فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو إن سيما التعب تبدو عليه ، كان لا يسمح لهذا الزائر بزيارته مرة ثانية !

وكان لنا قريب ساذج إلى حد بعيد فلما عرف أن أبى يتضايق ممن لا يطمئنه على صحته من زائريه ، دخل عليه يوما ثم وضع كفه على جبين أبى قائلا : أظن يا سعادة البيك أنه لاتوجد لديك حمى بتاتا ، فارتاح أبى إلى هذا ، إذ كان يشك فى وجود شىء من الحمى . . وليتأكد من ذلك وضع مقياس الحرارة فى فمه ، وبعد دقائق قليلة أخرجه ثم ناوله إلى هذا القريب ليقرأ له درجة الحرارة لأن نظر أبى كان ضعيفا لايستطيع أن يحقق أرقام المقياس الصغيرة تأمله صاحبنا مليا ثم قال : ما شاء الله ! ماشاء الله ! إن حرارتك ٣٣ فقط ياسعادة البك ! فصـــاح أبى مغضباً : أيها الجاهل لوكانت حرارتي ٣٣ كما تدعى لكنت ميتاً الآن !

فى ذلك العهد كنا نخفى عنه ما كان يظهر فى بعض الصحف من نقد لرواية قمبيز حتى لا نضايقه وهو فى مثل هذه الحالة ؛ لأنه كان حساساً جداً فيما يتصل بمؤلفاته ، وبخاصة شعره الذى كان فخوراً به إلى حد بعيد !

وقد افتخر كثيراً بشعره هذا فى قصائده ؛ ففى مرثيته لمصطفى كامل ، قال :

وأنا الذي أرثى الشموس إذا هوت

فتعود سيرتها إلى الدورانِ

وقال فى قصيدته فى نكبة دمشق :

رواة قصائدى فأعجب لشعر

بكل محلة يرويه خلقُ

وفى استقبال (المغفور لها) أم المحسنين :

لا تروى غير شعرى موكباً

إن شعرى درجات الخالدين

كل حمد لم أصغه زائل

خالد الحمد بما صغت رهين

.... إلخ

أما نقد رواية قمبيز فلم يكن لوجه الله ! بل سببه أننا كنا فى ذلك الوقت مرتبطين بصلة المصاهرة بدولة إسماعيل صدقى باشا الذى كان رئيساً للوزارة ، فكان هذا سببا فى نظر بعض صحف المعارضة إذ ذاك ، لمهاجمة أبى فى أدبه ! .. مع العلم بأن رواية قمبيز هى فى رأيى من أحسن روايات أبى ، إذ روجعت فيها الوقائع التاريخية مراجعة دقيقة بمعرفة

بعض أساتذة الآثار المصرية ؛ ومما يدل على توخي الدقة فيها أن أسماء أشخاص الرواية من مصريين وفارسيين هى أسماء كانت شائعة فعلا فى ذلك العصر بمصر.

وكان إذا أتم إحدى هـذه الروايات دعا إلى الكرمة بعض الأدباء والممثلين (وبخاصة المرحوم عزيز عيد) لتقرأ عليهم . . فإذا رأوا تغيير أحد المناظر غيّره لهم فى الحال ، أى إنه ينظم عشرة أو عشرين بيتاً آخر ... بقدر ما يتطلبه المنظر الجديد فى لمحة بصر !

وبمناسبة هذه المقدرة الكبيرة على نظم الشعر ، قال لى أحد أصدقائه الأخصاء : إنه نظم أكثر أبيات قصيدة النيل المشهورة فى سهرة واحدة بفندق سميراميس بقصر النيل ، وهى التى مطلعها :

من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كفٍّ فى المدائن تُغدقُ

مع أن هذه القصيدة تزيد على مئة بيت !

وبمناسبة ذكر عزيز عيد ، أذكر أنه بدا لعزيز مرة أن يقوم هو بدور قيس فى رواية «مجنون ليلى» وصمّم

على ذلك وإلا وقف تمثيلها ، فلم نخطر أبى بذلك خشية أن يغضب . لأن « عزيز » لم تمنحه الطبيعة من الناحية الشكلية ما يكفل له النجاح فى هذا الدور ولما أخبرنا أبى بذلك بعد تردد طويل، لم يغضب كما توهمنا بل ضحك كثيراً وقال: ولم لا؟ سنشهد نسخة أخرى من مجنون ليلى ولكن .... فكاهية!

كانت تسليته خلال هذه المدة ، إلى جانب اجتهاده فى إنجاز رواياته ، القراءة التى يقوم بها له سكرتيره أحمد افندى عبد الوهاب ، وكان يميل إذ ذاك إلى كتب الفلسفة الإسلامية . . وكان معجباً بوجه خاص بالغزالى ، كذلك كان يميل إلى سماع كتاب الجبرتي عن عصر المماليك . . فيسر كثيراً للنوادر المذكورة فيه . . وكان يقول إن الجبرتى اضطر إلى النفاق لينجو برأسه . وقد أشار إلى هذا فى تقريظه لكتاب « فتح مصر الحديث » تأليف أحمد حافظ عوض بك ، فقال :

... والجبرتىّ على فطنته مرة يغبي وحيناً يتغابى

ولم يمنعه اعتكافه من أن يلبي رجاء أية جمعية تطلب منه قصيدة لغرض وطني أو خيرى .. وآخر قصيدة نظمها

فى هذا السبيل ، قصيدته فى مشروع القرش ، إذ كانت تلاوتها يوم وفاته ! .. وهى التى مطلعها :

لا يقيمن على الضيم الأسدْ

نزع الشبل من الغاب الوتدْ

وهذه القصيدة أكثر من أربعين بيتاً ..

وكان إذا أذن له الأطباء فى الخروج قضى سهرته فى بيت المرحوم إسماعيل بك شرين حيث كان يجتمع للسمر كل ليلة نخبة من الأصدقاء أمثال : المرحومين فؤاد سليم حجازى باشا ، الدكتور محجوب ، حافظ بك إبراهيم ، وكان إسماعيل بك معتزاً بكونه من أصل تركى فى حين يباهي حافظ بك بأنه مصرى صميم ، فكانت تقوم بسبب ذلك منازعات بينهما ، فيقول إسماعيل بك لحافظ بك على سبيل الأغاظة : لا داعى للمكابرة يا حافظ إن كثرة عظماء البلد ونوابغها من أصل تركى مثلنا ، حتى شاعركم الأكبر « يقصد أبى » يجرى فى عروقه الدم التركي ! فتثور عندئذ ثائرة حافظ بك ويتهم الترك بدوره بالغباء !

أما الدكتور محجوب فكان كلما سمع عن شخص أنه

تزوج حن هو أيضاً للزواج وطلب من الحاضرين أن يجدوا
له العروس الصـــالحة ، فإذا سئل كيف يحب أن تكون
عروسه قال : أريدها كما أرادها كعب بن زهير :

هيفاء مقبلةً عجـزاء مدبرةً

لا يشتكى قصر فيها ولا طولُ

كذلك كان يتمناها شابة ، فكان أبى يلومه على هذا
مذكراً إياه بالخيوط الفضية التى غزت لحيتــه . فيصيح
الدكتور : إن هذا لا يهم ، إذ تجرى فى عروقه دم الشباب !

***

وكان أبى يحتفظ فى أيام اعتكافه بملبّس فى درجه
كى يستدرج إلى حجرته حفيديه احمـد وبوله[1] وكان
يسمى هذا الملبس الطعم ، مردفاً : أو تظنون أن هؤلاء
الشياطين كانوا يحضرون لزيارتى لولاه ؟ كلا ! إذ بالله
ما مصلحة أمثالهم فى ممازجة شيخ مهدم مثلى ؟

***

فى يوم الوفاة ، أى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، خرج

(١) هى إقبال بنت أختى الوسطى

يتروض فى السيارة مع سكرتيره فى ضاحية مصر الجديدة وقد تحدث معه يومها فى موضوعات دينية ، وقد سأله بوجه خاص ، وكأنه قد أحسَّ بدنو أجله ، عن التوبة والغفران وهل هو يتذكر نصاصريحاعنهمافى القرآن الكريم؟

ثم زار فى مساء اليوم نفسه ، الأستاذ محمد توفيق دياب بك فى مكتبه بجريدة الجهاد ، فقد كان أبى يحب الأستاذ دياب ويرتاح إلى مداعباته . وقد نظم له بيتاً جعله الأستاذ دياب بك شعاراً لجريدته « الجهاد » ، وهو :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً

إن الحياة عقيدة وجهادُ

وقد توفى حوالى الساعة الثانية صباحا . . . أيقظنى الخادم قائلا ان أبى تعبان وانه أرسله فى طلبى ، كما أرسله فى طلب أمى ، فأسرعت إلى حجرته فوجدت أمى بجانب السرير قلقة تناديه : ما بك ؟ ما بك ؟ ولكنه لا يجيب إذ كانت روحه قد فاضت ، ذهبت إلى ذلك العالم المجهول الذى طالما سأل عنه وتمنى لو عرف أسراره ، ألم يقل مخاطباً شكسبير :

ياصاحب العصر الخالى ألا خبر

عن عالم الموت يرويه الألبّاء

أما الحياة فأمر قد وصفت لنا

فهل لما بعد تمثيل وادناء ؟

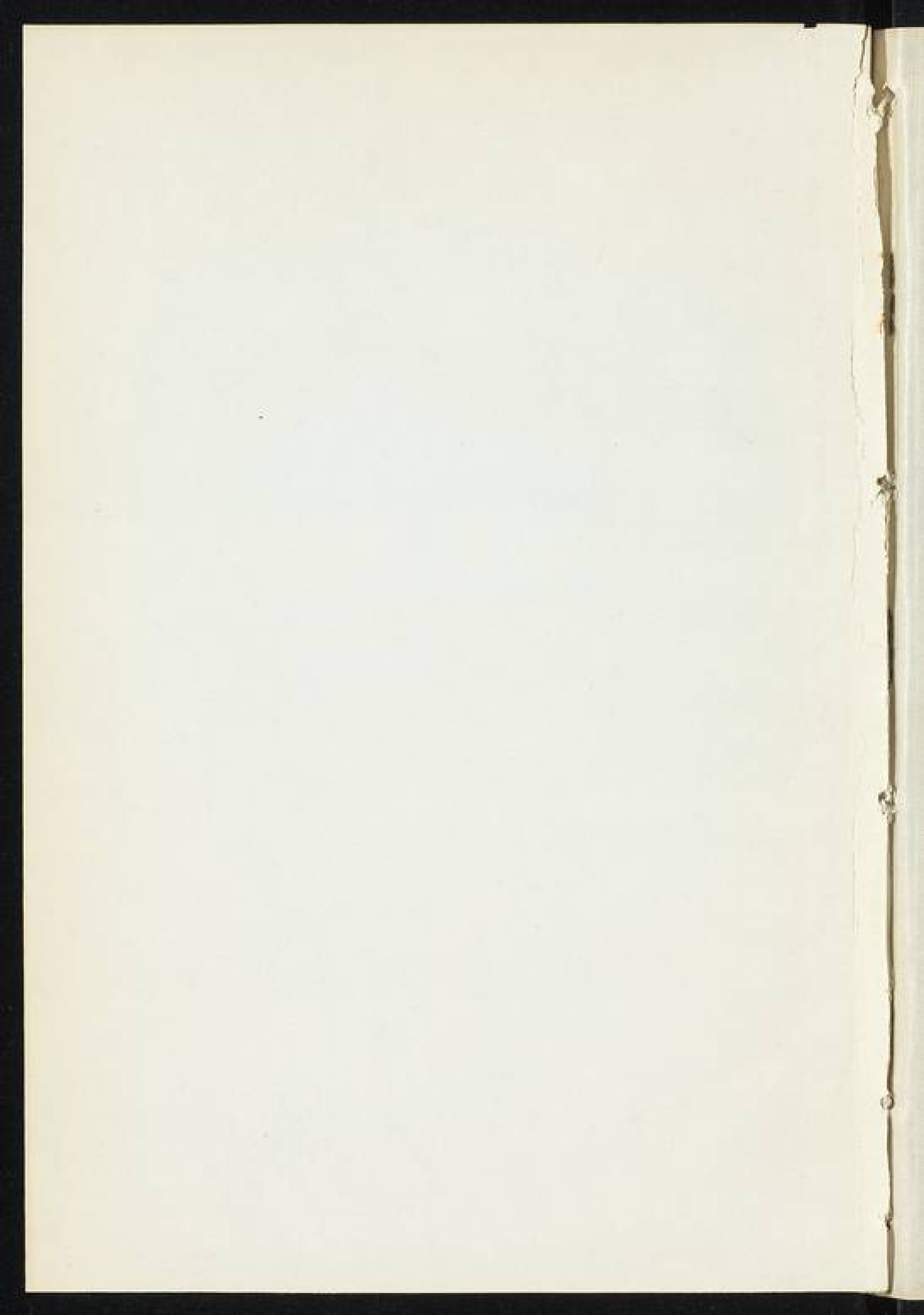
وقد كتبنا على قبره عملاً برغبة أبداها يوماً ، البيتين التاليين وهما من قصيدته « نهج البردة » فى مدح الرسول :

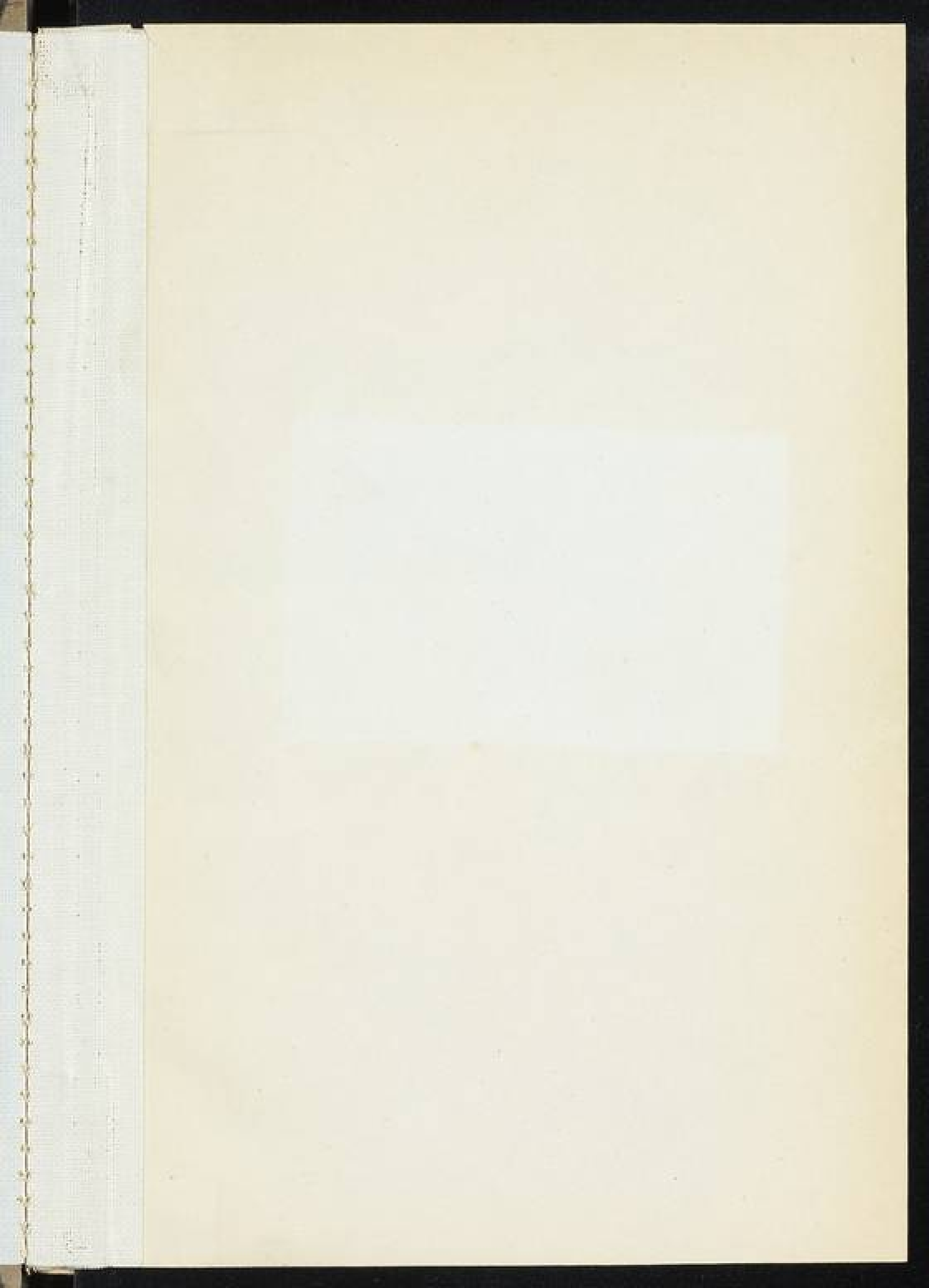
يا احمد الخير لى جاه بتسميتى

وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

إن جلَّ ذنبى عن الغفران لى أملٌ

فى الله يجعلنى فى خير معتصم






PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR
32101 041839976